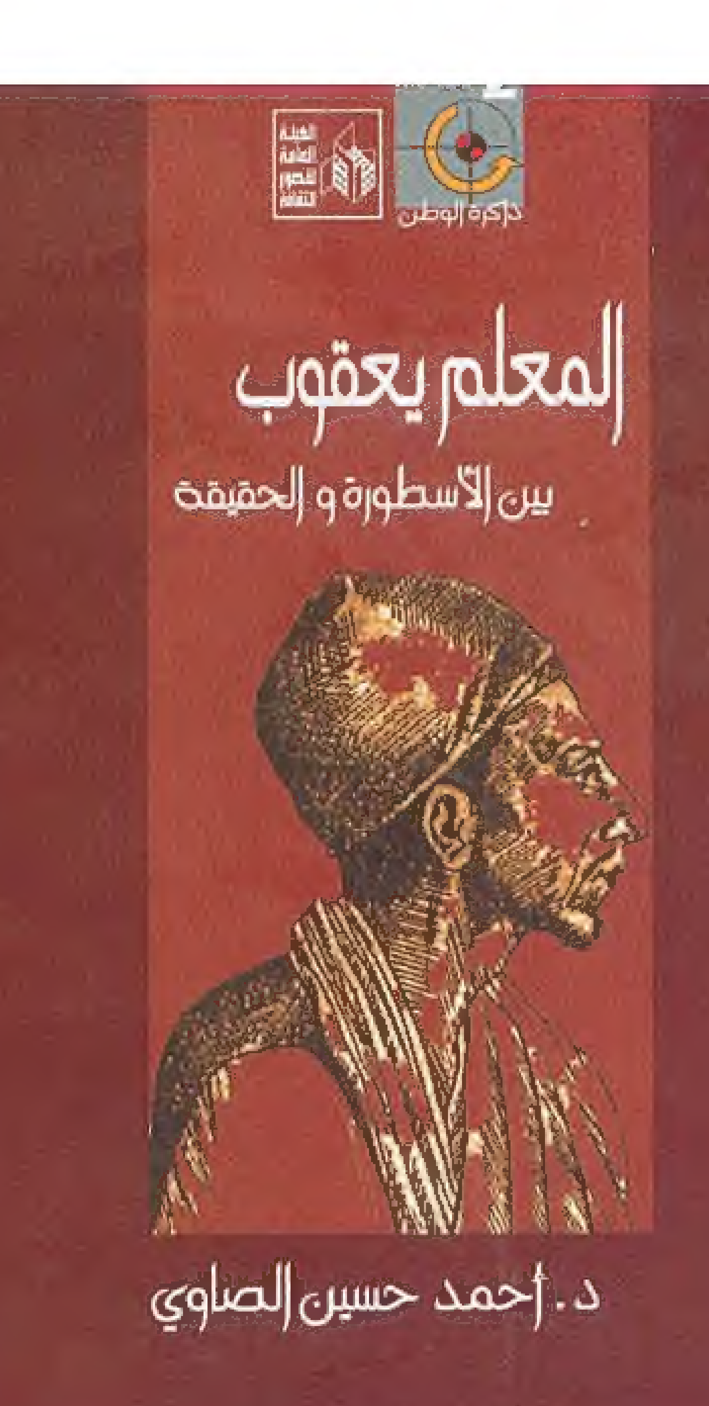


رفع بعض الباحثين "المعلم" يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين، وفي هذا الكتاب "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" تختلف الصورة تمامًا.

يتناول الكتاب سيرة "الجنرال" يعقوب منذ نشأته، معتمدًا على عدد وفير من المراجع والوثائق ومركزًا على صلته بالحملة الفرنسية، حيث اختار منذ البداية لنفسه نهجًا واضحًا لم يحد عنه، إذ ربط نفسه بالحملة ومصالحها واختار أن يرحل مع قواتها بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومنيت مشروعاتها في استعمار مصر بالفشل.





www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg

الثمن: جنيهان

سلسلة
ذاكرة الوطن

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

2

سلسلة تعنى بنشر كتب مختارة تعبر عن تاريخ مصر الثقافي والوجداني

• المعلم يعقوب
بين الأسطورة والحقيقة
• د. أحمد حسين الصاوى
الطبعة الثانية
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة ٢٠٠٩م
١٤٤ص، ١٣,٥ × ١٩,٥ سم
• التصميم الثقافى: د. خالد سرور
• رقم الإيداع: [illegible] / ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: [illegible]
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦ شارع أمين
سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت: ٢٧٩٤٧٨٩١ (داخلى: ١٨٠)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: ٢٣٩٠٤٠٩٦

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

د. أحمد حسين الصاوى



تقديم

المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

رغم إجماع مؤرخي التاريخ المصري الحديث على "خيانته" لتعاونه مع المحتل، ورغم أن وثائق المحتل نفسه قد كشفت دوره في التآمر على المقاومة الشعبية خلال ثورتي القاهرة الأولى والثانية. إلا أن "المعلم يعقوب" قائد ما سمي بـ"الفيلق القبطي" التابع لجيش نابليون مازال محور جدل ونقاش . . . فالبعض حاول ويحاول أن يصوره للأجيال الجديدة كرائد للتنوير، وكثائر على الظلم العثماني والمملوكي، وأنه صاحب رؤية ونظرية ترى إمكانية التحالف مع الفرنسيين لإدخال الديمقراطية والعدالة في المجتمع العربي . . . ورفع الظلم عن كاهل الإنسان المصري !!! مع أن الحقيقة غير ذلك تماما، وفي محاولة لوضع الأمور في نصابها الحقيقي وإظهار الحقيقة حفاظا على ذاكرتنا من التشويش الذي تستهدفه جهات عديدة لأغراض ليست وطنية . . . تعيد نشر هذا الكتاب للعالم الراحل

الكبير د. أحمد حسين الصاوي . . والذي ألفه في منتصف الثمانينات للرد على تلك المقولات الزائفة خاصة أن الرجل اعتمد على كثير من الوثائق الإنجليزية والفرنسية التي كشفت دوره منذ ما قبل الاحتلال بل وتعاونه مع المماليك ضد أبناء جلدته المصريين من مسلمين وأقباط، موضحا موقف "الكنيسة المصرية" الوطني من الاحتلال الفرنسي، وموقفها منه شخصيا منذ تعاونه مع المماليك وحتى تعاونه مع الفرنسيين وخروجه معهم مهاجرا إلى فرنسا بطلب شخصي منه حتى لا يفتك به أبناء وطنه جزاء خيانته لهم.

ورغم أهمية كتاب الدكتور الصاوي إلا أنه لم يستطع أن ينشره بعد تأليفه، وطبع طبعة محدودة نفدت في حينها، وأصبح الحصول على نسخة منه أمرا مستحيلا، ولقد أعاد الراحل الكبير رجاء النقاش الاعتبار للكاتب وكتابه عندما اعتمد عليه في تفنيد رأي لويس عوض عن المعلم يعقوب . . ونتيجة لما كتبه رجاء النقاش عن كتاب الدكتور الصاوي بدأ المثقفون يبحثون عنه في المكتبات بلا جدوى. واقترحت على عمنا رجاء النقاش أن يعيد نشره في سلسلة "ذاكرة الكتابة" التي تصدر عن هيئة قصور الثقافة وكان يرأس تحريرها . . فقال لي ضاحكا ـ يرحمه الله ـ إنها في دائرة تخصص سلسلة "ذاكرة الوطن" . ومنذ هذه المكالمة وأنا أعتبر أن إعادة إصدار هذا الكتاب إحدى وصايا أستاذنا رجاء النقاش قبل رحيله مباشرة فضلا عن كونه إعادة اعتبار لأستاذ الأساتذة د. أحمد حسين الصاوي الذي لم يعد يذكره أحد . . رغم أنه رائد من رواد الإعلام

ومؤسس لأغلب أقسام الإعلام في الوطن العربي. فضلا عن دوره في التأريخ للطباعة والصحافة . .

وترجع أهمية كتاب الدكتور الصاوي "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" إلى أن الرجل أراد أن يقدم بشكل علمي الحقائق كما هي، وسعى لتمحيص الآراء المختلفة من خلال الوثائق والمراجع والشهادات وخرج بمجموعة من الحقائق الهامة التي أرى أن أهمها توضيح موقف الكنيسة القبطية المصري الوطني من الاحتلال الفرنسي. وأن تسمية جيش يعقوب باسم "الفيلق القبطي" كان الغرض منه إثارة الفتنة الطائفية في حين أن الكتاب يكشف لنا بالوثائق أن هذا الفيلق كان يضم مجرمين سابقين من المسلمين والمرتزقة من خارج البلاد من أرمن وأتراك، وأنه ضم على حد تعبير الجبرتي الذعر والحرافيش من المتنصر إلى جانب شزاز النصارى الوافدين، ولفظ "النصارى" في الأدبيات التاريخية يعني "المسيحيين غير المصريين" فالمسيحيين المصريين كان يطلق عليهم مصطلح "الأقباط"، بل إن الدكتور الصاوي يكشف لنا في كتابه الهام عن دور "المعلم يعقوب" في العمل مع المماليك في جمع الضرائب والجزية من الفلاحين الأقباط في الصعيد، وغلظته وشراسته في التعامل مع الفلاحين المصريين سواء كانوا مسلمين أم أقباطا، ولقد اعتمد الدكتور الصاوي على مرجع قبطي هام هو "تاريخ الأمة القبطية" ليعقوب نخلة روفيله الذي أفرد فصلا خاصا لعلاقة "المعلم يعقوب" بالمماليك ثم الفرنسيين، ولقد تفرد "روفيله" بخبر حرمان

الكنيسة للمعلم يعقوب من التناول لأنه خرج عن تعاليم الكنيسة، واتخذ له "جارية" غير زوجته تشبها بالمماليك . . . فضلا عن الشكاوي التي كانت ترد إلى الكنيسة من رعاياها الأقباط في الصعيد من سوء معاملته . . يتفرد أيضا "روفيله" بموقف الكنيسة الوطني الواضح منه بعد تشكيله للفيلق القبطي بأوامر من نابليون، واعتبار الكنيسة أن ذلك الموقف تعاون مع ممثل "الكاثوليكية" ـ نابليون والذي ترى الكنيسة أنه خروج واضح عن تعاليمها. الكتاب الذي بين أيدينا يناقش بشكل علمي يعتمد على الوثائق العربية والأجنبية ليحسم بشكل لا يقبل الجدل حقيقة "المعلم يعقوب" الذي يريد البعض الآن أن ينصبه "ثائرا وتنويريا" في محاولة لطمس الذاكرة الوطنية، وإشاعة مفاهيم غير وطنية منها أن التعاون مع العدو ممكنا بل إن "الخيانة" نفسها يمكن أن تكون وجهة نظر .

أسامة عفيفي

مقدمة

هذه دراسة لصفحة من تاريخ مصر ، نعرضها بكل موضوعية وبنظرة علمية مجردة تتخطى حدود أية حساسيات ، ونرجو أن يتقبلها القارىء برحابة صدر ودون ما حساسيات كذلك . فهدف الدراسة هو جلاء الحقيقة ، والحقيقة وحدها . ولا فرق أمام الحقيقة وأمام التاريخ بين مسلم ومسيحى .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر غزواً له سماته المتميزة . وإذا كان الفرنسيون قد فشلوا فى امتلاك مصر أو فى إعادة تشكيل هيكلها السياسى والاجتماعى،فالذى لاشك فيه أن حكمهم لمصر ثلاث سنوات كان فى حد ذاته هزة عنيفة أحدثت نتائج بعيدة المدى قوية الأثر فى حياة مصر وبنيتها السياسية والاجتماعية . ولعل من أسوأ نتائج هذه الحملة ما أوشكت أن تحدثه من شروخ فى بنية الأمة ووحدتها .

فتحت مصر بعد الحملة صفحة جديدة فى تاريخها واستأنفت مسيرتها بما وعته من دروس ، أمة واحدة . وبنى الشعب المصرى بمسلميه وأقباطه دولته الحديثة . ونحن أبناء هذا العصر نفخر جميعا ونعتز بأبطالنا وأفذاذنا من هؤلاء وأولئك ، الذين أسهموا بكل إخلاص وتجرد

فى بناء الوطن والعمل على استقلاله ورفعته وتقدمه ، وبالقدر نفسه نلفظ منهم كل من انحرف عن الطريق أو أساء إلى قومه وبلاده .

د/أحمد حسين الصاوى

تمهيد

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب ... شخصية مصرية تصلح لبناء قصة درامية مثيرة . كتب عنه عدد من المؤرخين ، ولكنهم على قلتهم اختلفوا فيه أيما اختلاف : منهم من هاجمه بعنف وضراوة واعتبره خائنا لقومه وبلاده ، مثل مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي . ومنهم من اكتفى بأن سجل نشأته وسرد مختلف مراحل حياته ، وإن لم يخل ذلك من محاولة تصويره في صورة زعيم مرموق من زعماء طائفته ، مثل بعض مؤرخي الأقباط . ومنهم كذلك من وقف موقف المؤرخ المدقق فناقش في اجتهاد ملحوظ بعض الوثائق التي نسبت إلى يعقوب من الأمور الخطيرة في آخر أيام حياته مالم يعرف عنه في حينه ، مثل أستاذنا شفيق غربال . ثم جاء أخيرا من مضى خطوة أبعد ، فرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين مثل الدكتور لويس عوض .

إن اختلاف الرأي التاريخي حول شخصية عامة لهو من الأمور الشائعة التي ألفناها ، سواء فيما يتصل بشخصيات تاريخنا أو تاريخ غيرنا . فكيف نكتنه الحقيقة ؟ إن واجب المؤرخ الصادق بعد أن يلمس مدى تفرق السبل بمن سبقه من المؤرخين في هذا الصدد ، وتفاوت

أحكامهم بين الأبيض الناصع والأسود القاتم عبر مختلف درجات الرمادية ، واجبه أن يكون حكما عدلا ، فيبحث ويناقش ويحلل ويستنتج بعقل متجرد ومنطق واضح ومنهج سليم . وليس هذا بالأمر الهين وإنما هو مهمة ثقيلة محفوفة بالمحاذير حافلة بالمشقةفضلا عما تتسم به أحيانا من حساسيات . وسوف أحاول في هذه الدراسة بمناقشة كل ما كتب عن الجنرال يعقوب ، وما أمكن العثور عليه من وثائق تتصل بحياته ، وباستقراء الظروف والملابسات التي نشأ وعاش في ظلها والأحداث التي تفاعل معها ، أن أستخلص ملامح صورته الحقيقية دون ما مبالغة أو تضخيم ، ودون ما « رتوش » أو ظلال . وهو قبل كل شيء مواطن مصري برز على مسرح الأحداث خلال فترة بالغة الأهمية في تاريخ مصر الحديث . ولا يكاد الجيل الحالي من المواطنين يعلم عنه شيئا . والقلة القليلة التي تعلم تختلف أو تتخبط في الحكم عليه ، تبعا لما تأثرت به من كتابات تتراوح بين ذروة الإشادة وحضيض التجريم .

أقباط مصر

كان أقباط مصر إبان العصر العثماني يمثلون أقلية متميزة تعيش في نطاق أوضاع وتقاليد شكلية خاصة مثل التزيي بزي معين ، أو اتخاذ لون معين للعمامة . وقد رسخت هذه الشكليات عبر القرون منذ أصبحت مصر قطرا إسلاميا ، وتأكدت بعد أن صارت مصر ولاية عثمانية تخضع روحيا وزمنيا لسلطان خليفة المسلمين في استانبول ، ويحكم استقرارها نظام فريد يقوم على لون من توازن القوى بين الوالي والمماليك وقوات الجيش العثماني (الأنكشارية) .

ولم يكن فرض تقاليد معينة أو أوضاع خاصة على أقلية من الأقليات — دون ما دخول في التفصيلات — بدعا أو أمرا غير مألوف في تلك الأيام . فقد كان ذلك سمة من سمات مختلف الأنظمة التي حكمت مجتمعات العصور الوسطى شرقا وغربا ، في ديار الإسلام وفي غير ديار الإسلام . وقد اتسع نطاق تلك الأوضاع والتقاليد ليضم مع الأقباط نصارى الشام والأروام (اليونانيين) بجامع المسيحية في كل .

ولم تعش طائفة الأقباط بطبيعة الحال منعزلة أو مقطوعة الصلة بسائر طوائف المجتمع المصري وطبقاته . فبغض النظر عن تلك الأوضاع

والتقاليد الخاصة التي أملتها الاعتبارات « الإسلامية » و « العثمانية » ، فقد عاش الأقباط أفرادا وجماعات جنبا إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين في وئام ، يمارسون مثلهم شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة ويشاركونهم عديدا من المناسبات الاجتماعية وبخاصة تلك المتوارثة من قبل دخول المسيحية والإسلام إلى مصر ، متمثلة في الأعياد والاحتفالات المصرية الأصيلة كوفاء النيل وشم النسيم . بل بلغ الأمر في هذا الصدد أن اختلطت أحيانا بعض المناسبات فارتدت ثيابا إسلامية مسيحية مشتركة فوق ثيابها المصرية القديمة ، وشارك فيها الجميع في حماس وشعور عميق بالانتماء إلى تراث مشترك .

ومن الأمانة التاريخية هنا أن نشير إلى أن هذا التعايش السلمي عميق الجذور تعرض أحيانا قليلة إلى بعض الشروخ السطحية ، نتيجة احتكاكات طفيفة أملاها الجهل والتعصب . وهي حالات نادرة محدودة النطاق ، ولايمكن أن تقاس إلى مثيلاتها في أوربا أو آسيا في تلك الأيام .

وبالاضافة إلى ذلك فقد توارث الأقباط حرفا ومهنا معينة حذقوها وبرعوا فيها وتعمقوا أسرارها ، وأصبحت حكرا لهم ووقفا عليهم ، لم يحاول مواطنوهم المسلمون أن يشاركوهم إياها ولا أن ينافسوهم في مجالاتها . وكان على رأس ما حذقه الأقباط وبرعوا فيه مهنة الصيرفة وما يتصل بها من حساب الأموال عداً وجباية وتحويلاً وخصماً وإضافة ... الخ . ومن ثم اعتمد عليهم الأفراد والجماعات في عمليات الصيرفة والحساب اعتمادا تاما . فلكل تاجر أو مملوك أو ناظر وقف « محاسب » قبطي « يمسك دفاتر » الدخل والمنصرف ويحسب الحق والمستحق . وقبل هؤلاء كان المسئولون من « الكشاف » و « المحتسبين » و « الملتزمين » يعهدون إلى المحاسبين الأقباط بهذه الأعمال فيما يتصل بالأموال العامة للولاية . وكانت علاقة هؤلاء المحاسبين بمن يعملون لهم هي الأخرى علاقة حميمة تحكمها المصلحة المتبادلة أولا ،

وكان من المنطقى كذلك أن يرحب الفرنسيون بتعاطف الأقباط معهم ، وبخاصة بعد أن لمسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أذاعوه من ادعاءات . فأخذوا منذ استقر الأمر لهم فى القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواتهم الزاحفة لإتمام احتلال البلاد ، ولمساعدة الجهاز الإدارى على تدبير شئون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والمحكومين على السواء .

وكان من المنطقى أيضا أن يغتر هؤلاء الأقباط ومن ظاهرهم فى موقفهم من نصارى الشام والأروام بما حققوا من مكانة لدى الحاكم الجديد ، فيحاولوا أن ينزعوا عنهم ثوب المهانة الاجتماعية ، فيتحللوا من تلك القيود الشكلية التى فرضت عليهم قرونا ، ويبالغوا فى ذلك أحيانا بما يؤذى مشاعر المسلمين . ويسرد الجبرتى من حوادث شهر شعبان سنة ١٢١٣ (عقب دخول الفرنسيين) « ... ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين ، كل ذلك بما كسبت أيديهم ... » (١)

ولكن يبدو أن الأمر فى هذا الصدد قد جاوز حدوده المعقولة ، ففى شهر رمضان التالى ، وهو شهر له مكانته الخاصة فى نفوس المسلمين ، حال الفرنسيون دون تدهور العلاقات بين الفريقين بمنع الطوائف المسيحية من تحدى مشاعر المسلمين . ويقول الجبرتى « ثم إن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك . ونبهوا أيضا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك بمرأى منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية » (٢) .

وإن كانت لا تفتقر إلى الوئام .

وقد جنى المحاسبون الأقباط من مهنتهم أموالا طائلة، وبخاصة من كان منهم يعمل مع كبار « الممولين » أصحاب الإقطاعيات الشاسعة والثروات الضخمة والخيرات الوفيرة التى تتيح أوسع الفرص للكسب المشروع وغير المشروع .

وتضخمت ثروات بعض الأقباط فصاروا من كبار الأغنياء المعروفين الذين يكونون مع غيرهم من أغنياء التجار والعلماء ومن إليهم طبقة اجتماعية واحدة ، لها امتيازاتها ومصالحها ولها نمط حياتها الخاص . فشيدوا مثل غيرهم من الأغنياء أفخم الدور والقصور ، وفرشوها بكل غال وثمين ، وملكوا العبيد والجوارى ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والحشم والحراس وبكل مظاهر الحياة الرغدة المترفة الناعمة .

وبينما كانت القاعدة العريضة من الطائفة القبطية تتعايش مع القاعدة العريضة من المسلمين تعايشا سلميا كاملا فى قرى مصر ومدنها ، كان متنورو الطائفة وأغنياؤها أكثر إحساسا أو حساسية بتفردهم أو اغترابهم من حيث هم أقلية مسيحية صغيرة تعيش وسط مجتمع إسلامى كبير ، وتحكمها قيود وأوضاع اجتماعية خاصة .

وينبغي أن نلاحظ أن استعانة الفرنسيين بالأقباط في الأمور المالية بالذات كانت ضرورة حتمتها خبرة هؤلاء الطويلة السابقة، واحتكارهم لكل المعلومات المتعلقة بهذا الشأن. أي أن إرادة الطرفين التقت عند غاية واحدة هي التعاون بينهما لما فيه مصلحة النظام الجديد.

وقد دعم من هذا التقارب أن الحملة الفرنسية، شأنها شأن سائر حملات الغزو الاستعماري وموجاته قديما وحديثا وبالرغم مما رفعته من شعارات وما أذاعته من تمويهات، وجدت في سياسة التفريق بين الطوائف واحتضان الأقليات ما يعينها على تثبيت أقدامها وتحقيق أهدافها.

ولكن المستعمر من ناحية أخرى قد يغري بالتعاون معه أحيانا بعض ضعاف النفوس أو ضعاف الانتماء من غير أبناء الأقليات، ممن لا يبغون سوى تحقيق مصالحهم المادية القريبة. وسواء أكانت المبادرة من جانب المستعمر أم من جانب أولئك الوصوليين الانتهازيين فالنتيجة واحدة. وعلى ذلك فلم يكن نصارى مصر وحدهم هم الذين ابتغوا الأمن والجاه والمتعة في كنف الفرنسيين، وإنما شاركهم في هذا الاتجاه بصورة ما من بقي في مصر من المماليك (المسلمين) وعلى رأسهم مراد بك. لقد ظل مراد ورجاله مثلا يناوشون القوات الفرنسية في الصعيد حتى آثروا في عهد كليبر حقن الدماء والتعاون مع الغزاة مقابل الإبقاء على مغانمهم وإرضاء جشعهم واستمتاعهم بممارسة قدر من السلطان يواصلون به ما اعتادوا عليه من التحكم في رقاب العباد. وكذلك فعل مماليك آخرون ممن شايعوا مراد بك في الصعيد وغير الصعيد من أراضي مصر. كما جهر بمعاونته نفر من قدامى موظفي الحكم العثماني.

الفروسية مع من عمل في خدمتهم من المماليك، وساعده على ذلك ما اشتهر عنه من نزوع إلى القتال والنزال. وقد حارب يعقوب بالفعل في صف المماليك ضد قوات القبطان حسن باشا التي نزلت إلى مصر لتثبيت الحكم العثماني قبل قدوم الحملة الفرنسية بفترة قصيرة (شكل ١).

ويقول من أرخوا ليعقوب من أبناء طائفته «إن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم، وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم»(٢). وقد تبدى ذلك في بعض مظاهر حياته، فقد خالف أبناء قومه في الزي والحركات، كما اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية (كانت سورية من حلب). ولم يكن رجال الدين راضين عن غروره وخروج تصرفاته معهم ومع الكنيسة عما تبتغي مراعاته من الأصول والتقاليد. وقد نصحه بطريرك الأقباط نفسه عدة مرات بالعدول عن خطته وبأن يعيش كسائر إخوانه، ولكنه رفض النصيحة.

هذا هو «المعلم يعقوب» الذي كان في الثالثة والخمسين من عمره عندما غزت الحملة الفرنسية مصر بقيادة الجنرال بونابرت. وقد بلغ شأوا بعيدا في قومه، فكان من كبار الأثرياء ومن زعماء الطائفة المبرزين في مجتمع القاهرة وأقاليم الصعيد على السواء.

فكيف بدأت حركة التعاون بين القبط والفرنسيس، وكيف تطورت؟

يقول جورج ريجو (G. Rigault) في كتابه «الجنرال عبد الله منو» أنه كان على بونابرت وهو يرأس جهاز الحكم في مصر أن يضمن الوجود المادي للجيش الفرنسي. ولكن بما أن الأقدار قد ألقت به إلى بلد غير متحضر، فلم تكن لديه أية وسيلة يستطيع بها أن يعرف حصيلة الإيرادات أو ينظم جباية الضرائب. ولكن كان أمامه الأقباط. فمن قبل الحملة كان المماليك دائما يعهدون إلى هؤلاء المسيحيين

ديسمبر. وقد هنأ القائد الفرنسي على حسن بلائه وقدم إليه سيفا تذكاريا نقشت عليه « معركة عين القوصية — ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ ».

وفي هذا الوقت كانت حدة القتال في الصعيد قد هدأت ، وساعدت الطبيعة الجغرافية للصعيد من احتمى به من المماليك على أن يجدوا ملاذا آمنا في كهوفه ومجموعه القابعة في بطون الجبل ، كما عاق ضيق الوادي المطرد نحو الجنوب أي تقدم فعال للقوات الفرنسية الزاحفة التي اكتفت بإقامة نقاط عسكرية فيما احتلت من أقاليم. ومن ثم طالت حملة الصعيد أكثر مما كان متوقعا.

شكل رقم (١)



في عهد كليبر

غادر بونابرت مصر فجأة (في أول أغسطس ١٧٩٩) عائدا إلى فرنسا ، وخلفه في القيادة الجنرال كليبر (Kléber) الذي كان يضيق ببقاء الفرنسيين في مصر ويتطلع للعودة بجيش الشرق إلى بلاده ، بعد أن يئس من فشل الحملة في تحقيق أغراضها . ومن ثم رحب بالتفاوض مع العثمانيين والإنجليز تمهيدا للجلاء عن مصر ، وإن لم يقدر لهذا الجلاء أن يتحقق في عهده

وعاد ديسيه من الصعيد ليكون إلى جوار قائده في ظروفه غير المواتية . وكان ثاني اثنين مثَّلا كليبر في مفاوضات الصلح مع الجانب العثماني الإنجليزي في ديسمبر عام ١٧٩٩ . ولم تلبث اتفاقية العريش التي أبرمت بين الجانبين في أول عام ١٨٠٠ أن نقضت ، ونشب القتال بين الفرنسيين والعثمانيين ، وقد انتصرت فيه قوات الحملة بقيادة كليبر انتصارا حاسما (موقعة عين شمس – مارس ١٨٠٠)

ولكي يحقن كليبر دماء جنوده بعد أن كان العثمانيون قد تغلغلوا في البلاد وأثاروا الخصومة ضد الفرنسيين إثر نقض اتفاقية العريش ، وقع مع مراد بك اتفاقية « سلام وتحالف » (Paix et alliance) وكانت

المماليك والعثمانيين "وأعانوهم بالمال واللوازم" مداراة لهم وفداء لأرواحهم وعطفا على حركتهم . فإن يعقوب "تحصن في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي ، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أي ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) ، فكان معظم حرب حسن بك الجداوي (من زعماء المماليك) معه [6]"

ويعترف مؤرخو الأقباط بأن يعقوب ومن تحصن معه من أخلاط القبط والشوام والأروام وبعض الفرنسيين قد حارب قوات العثمانيين والمماليك بعد نقض معاهدة العريش . ولنقرأ ما كتبه أحدهم (رؤوف حبيب) نقلا عن عدة مصادر « وكادت نار الثورة أن تلفح القبط بشواظها لولا أن تدارك المعلم يعقوب الأمر ، بحنكته المعهودة وحسن دفاعه ، فظهر في تلك الظروف العصيبة مقدرة منقطعة النظير واستهدف لخطر داهم ، وظل رابط الجأش على عسكره وهو يبث فيهم روح الحماس بعباراته النارية وجرأته الرائعة ، وثبت إلى النهاية أمام حصار عنيف وهجوم عنيد لمدة حتى تم له النصر » [7]

أخمد كليبر ثورة القاهرة مستخدما أبشع أنواع القهر والقمع والإرهاب . ثم فرض على المصريين كثيرا من المغارم عقابا لهم على الثورة . ونظرا لموقف المعلم يعقوب المتميز في أثناء الثورة ، بالإضافة إلى ما ظهر من مواهبه من قبل ، فإن كليبر على حد قول الجبرتي « وكّل يعقوب القبطي يعمل في المسلمين ما يشاء » . وبنفس القول في ذلك يذكر « إنهم (أي الفرنسيين) وكّلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطي وكتبة بذلك وعمل الديوان (أي أقام مكتب) لذلك ببيت البارودي » [8]

كان طبيعيا بعد فشل ثورة القاهرة الثانية أن يزيد زهو الأقباط وخيلاؤهم ، وبخاصة من عمل منهم في خدمة الفرنسيين ، وأن يشايعهم

في ذلك غيرهم من نصارى الشام ومن إليهم ، وأن يسوء سلوك هؤلاء وأمعنت في معاملة المسلمين إلى أقصى حد . ونستطيع أن نبين قتامة الصورة من عبارات الجبرتي التي وصف بها هذه الحالة والتي تقطر مرارة وسخطا . فهو يقول مثلا « تطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكانا وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين »(٢) . ويشير الجبرتي إلى تعسف السلطات الفرنسية في تحصيل المغارم التي فرضتها على المصريين ، من أموال وغلال وماشية وغيرها . فيقول « وكل ذلك بإرشاد القبطة وطوائف البلاد (يقصد الأقليات المسيحية الأخرى) لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم (أي الفرنسيين) بجمع المال . ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنساوية وهو في أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والخدم والفراشون .. وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات والقواسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة ... ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهته المستوفين (أي المحصلين) من القبط أيضا ... ومعهم العسكر من الفرنساوية والصرافين والمقدمين .. فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب والسبي ، وخصوصا إذا عز مشايخ البلدة من خوفهم وعدم مقدرتهم ، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم وسحبوهم معهم في الحبال وأذاقوهم أنواع النكال »(٣) .

أما يعقوب فقد تعاظم نفوذه وعلت مراتبه ، وبلغ في علاقته بهم مبلغا بعيدا . صحيح أنه لم يبن آن يجمع نفسه عندما جمع

الفرنسيين ، كما يقول أستاذنا شفيق غربال ،(١) وصحيح أنه ارتدى [illegible] وركبته الخيلاء ، ولكنه انفرد دون بني قومه بما نسج حول اسمه تلك الأسطورة الدرامية التي تختلف فيها الآراء .

لقد منحه كليبر رتبة « كولونيل » وجعله على رأس فرقة عسكرية من شباب القبط . فما هي قصة تلك الفرقة أو « الفيلق » كما عرفه المؤرخون ؟

يقول مؤرخو الأقباط (نقلا عن جاستون حمصي)(٢) إن مبادرة جاءت من جانب المعلم يعقوب [illegible] فكرة في تأليف فرقة قبطية » وفاتح الفرنسيين في ذلك فوافقوا . ويقولون إنه بعد أن جمع يعقوب شباب هذه الفرقة وكل كليبر أمر تدريبها إلى ضباط فرنسيين ويزيدون على ذلك أن يعقوب هو الذي جهز هذا الفيلق بالسلاح والذخيرة على نفقته الخاصة .

ويجاري الأستاذ شفيق غربال كذلك جاستون حمصي في ذكر أن يعقوب « نظم جيشا من الأقباط [illegible] في مستهل الحرب . وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة »(٣) . وأن كليبر « أذن بإنشاء الفرقة القبطية » . ويؤيد الدكتور لويس عوض « لا يرجح أن يكون يعقوب هو الذي أنشأ الفرقة القبطية ، فيقول إن كليبر عين يعقوب « قائدا للفيلق القبطي الذي تشكل في مصر لمعاونة الفرنسيين [illegible] العثمانيين والأتراك »(٤) .

غير أن معاصري الحملة من المؤرخين يذكرون [illegible] - [illegible] ريجو (نقلا عن نقص وثائق الحملة ومعاصريها) « أنه بعد انتصار كليبر على الأتراك في موقعة عين شمس ، كان لديه [illegible] ألف [illegible] وجندي على استعداد لخوض معركة أخرى فورا . وكان كليبر يتأهب لكي يضم إليهم قوات إضافية : فرقة من الأقباط وأخرى من اليونانيين »(٥)

ويورد الجبرتي ذلك بالتفصيل في حديثه عن حوادث تلك الأيام نفسها (محرم ١٢١٥ – مايو – يونيو ١٨٠٠) «طلبوا عسكراً من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو ألفين واحضروهم إلى مصر (أى القاهرة) وأضافوهم إلى عسكرهم».

كما ذكر المؤرخ رينيه (Reymer)، وهو أحد قواد الحملة الفرنسية، أنه بعد نقض اتفاقية العريش كونت فرقة من اليونانيين (الأروام) بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ جندي (أى ما يقرب من عدد الفيلق القبطي) ويصف مصدر معاصر كثير يقال أنه في صبيحة يوم ... تذكر ينتقص الفرق اليونانية.

ومما يؤيد أن تجنيد هذه الطوائف الأجنبية في مصر كان ... عندما ... من الفرنسيين ... صلح العريش ... وقد ذكر الجبرتي من ... العريش بعد الصلح بعض مراكب ... بالمسائل الحربية مع مصر في حراسة بعض ... الفرنسيين ... على ... وأخذوا ... وحبسوا ... وأعيان التجار وأخذوا الملاحين والمنتسبين من البحرية ولنصارى الأروام وهم عدة وافرة وأعطوهم سلاحاً وزيوهم بزيهم وأضافوهم إلى عسكرهم وأرسلوهم إلى مصر (أى القاهرة)» ... بونابرت نفسه عندما قاد حملته على مصر ... جمعه مشروع لتجنيد عشرين ألف رجل من أقليات الولايات العثمانية التي يفتحها.

... هنا بالأولى إلى المنطق أن تكوين فرقة عسكرية من شباب الأقباط كان ... الفرنسيين وأن يعقوب كان ...

... في ذلك. ولكن هذا لا ينفي أن حملة الفرنسيين كان لها في نفس يعقوب صدى طيب، وأنها وجدت منه تجاوباً ... فتحى لا ننسى ما سبقه اهتمام بالأمور القتالية منذ صباه وميله الشخصي إلى الفروسية والنزال. ونحن نذكر له ما ... في مقر إقامته بالقاهرة من وسائل التحصين إبان ثورة القاهرة الأولى، ثم اشتراكه في الحرب مع ديسه التي كان يصحبه في زحفه بالصعيد، وكذلك ... إجراءات وما كان له من إسهامات في أيام ثورة القاهرة الثانية. أى أن الفرنسيين بخططهم الاستعمارية ويعقوب بأحلامه وطموحاته التقيا على إرادة واحدة تجسدت في إطار واحد، هو تكوين الفيلق القبطي.

وعلى ذلك فمن المبالغة أن نفترض أن يعقوب هو الذي فكر وحده في إنشاء الفيلق القبطي، ثم نخلص من ذلك الفرض ... موقفاً ليعقوب لا سند له من دليل، فنقول كما قال الأستاذ شفيق غربال «إن من أسباب تأييد يعقوب للحكم الفرنسي أنه أتاح له إنشاء فرقة حربية مصرية مبنية على النظم العسكرية الغربية، وأن وجود الفرقة القبطية أول شرط أساسي يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية ... من أن يكون له أثر في أحوال هذه الأمة (أى يتزعم حركة استقلالها) إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً». ومن الغريب أن يذهب مؤرخ عظيم كشفيق غربال في التصور إلى ما هو أبعد من هذا، فيعقد مقارنة بين يعقوب وعمر مكرم قائلاً إن يعقوب كان «يرمي إلى الاعتماد على القوة الحربية والسيد عمر يعتمد على الهيج الشعبي الذي تسهل إثارته، والذي قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض خاصة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسي الدائم المثمر.. هذا الفرق بين الأداة التي حصرها يعقوب وتلك التي اختارها السيد عمر، ليس في الواقع إلا مظهراً لفروق أعمق. إذ ما حاجة نقيب الأشراف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان.. أما يعقوب فهو شأن آخر، إنه ...

لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون كلمة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد ... أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية ، فكان سباقا إلى فهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك . أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الفرنسيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية »(٨)

استقر يعقوب في القاهرة على رأس الفيلق القبطى ويبدو أنه كان هذا الموقف الغريب والمضى في تأييد المستعمر وخططه إلى هذا المدى أسوأ الأثر في نفوس المصريين ولعل في عبارة مؤرخنا الجبرتى التى سجل بها هذا الحدث ، وما تحمل به من امتعاض ومرارة ، ما يعكس مشاعر الناس إزاءه قال الجبرتى من حوادث عام ١٢١٥ — « إن يعقوب القبطى لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبطة (أى قائدا لهم) جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه عسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيّرهم عسكره وعزوته ، وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة وسوّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام

وكذلك بنى أبراجا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية . وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر (أى القاهرة) الذى رممه الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية »(١٢) وهكذا أرضى يعقوب في نفسه

أحلام الفارس القديم : قبعة من الجلد وقبعة معصمة وجرس نحاسى ورسوم وشارات ولقب عسكرى

في عهد منو

لم ينعم كليبر طويلا بانتصاره على العثمانيين وبنجاحه في إخماد ثورة القاهرة الثانية وفي تحقيق الاستقرار بالصعيد . فما لبث أن لقي مصرعه على يد سليمان الحلبي في ١٤ يونيو ١٨٠٠ . تكهرب الجو في القاهرة والأقاليم مرة أخرى ، وتولى قيادة الحملة جاك منو (Menou) وبدأ التاريخ يخط أولى سطور الفصل الختامي في حياة الحملة الفرنسية وجيش الشرق . ومما يلفت النظر في هذه المناسبة ويوضح وثيق الصلة بين الفرنسيين والطوائف المسيحية في مصر أن جنازة قائدهم المقتول لم يشترك فيها من المصريين غير ممثلي هذه الطوائف . ولنقرأ ما قاله شاهد العيان المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من وصف هذه الجنازة « ولما فرغوا من ذلك (أي من محاكمة سليمان الحلبي وزملائه) اشتغلوا بأمر مواراة عسكرهم المقتول ، وذلك بعد موته بثلاثة أيام كما ذكر ، ونصبوا مكانه عبد الله جاك منو ، ونادوا بالكنس والرش (استعدادا للجنازة) فلما أصبحوا اجتمع عسكرهم وأكابرهم وطائفة عينها القبط والشوام (أي نصاراهم) وخرجوا بموكب مشهده ركبانا ومشاة وقد وضعوه في صندوق من رصاص »

استمر يعقوب في عهد منو يؤدي مهمته في خدمة السلطات

الفرنسية ، ويتمادى هو وأعوانه في أثناء هذا العمل على حساب أمن المصريين وسلامتهم وحرياتهم وكرامتهم وحرمة بيوتهم وأموالهم . واستقراء الوقائع في هذا الصدد وإنعام النظر في ملابساتها وردود فعلها يبين أن موقف هؤلاء « المتعاونين » كان نابعا من أكثر من مجرد الشعور بالتعصب الطائفي . لقد غلبت عليهم الانتهازية الجشعة والأثرة العمياء التي تجرد النفوس من المشاعر الإنسانية الطيبة ، واستغلال الظروف غير الطبيعية التي ذهبت بهم، وهم فئة قليلة مستضعفة من الناس، فجأة إلى مكان الصدارة والنفوذ والمنعة ، بعد أن عانوا طويلا « من إهمال لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ، ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام إليهم » ، كما يقول شفيق غربال [20] .

ويحدثنا الجبرتي عن كثير مما شاهده في تلك الأيام العصيبة فيقول « اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله . . فنزل بالناس منه ما لا يوصف .. فكان يدخل إلى دار أي شخص لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصا ما فعله ببولاق فإنه كان يحبس الرجال مع النساء . . ويوقع عليهم العذاب » [21]

ويروي الجبرتي كذلك في حديثه عن مشاركة يعقوب ورجاله في تحصين القاهرة في وجه العثمانيين عندما اقتربوا منها للمرة الثانية (من حوادث شهر المحرم ١٢١٦ = مايو ١٨٠١) أنه « . . توكل رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطي ..... » ويبدو أن تجاوزات أعوان يعقوب بلغت من التطرف حدا جعل السلطات الفرنسية نفسها تتدخل لوقفها . فعندما أتى الناس

شكرهم إلى « بليار » (Belliard) قائمقام (أى نائب) منو أمر بالقبض على ذلك القبطى « وحبسه بالقلعة . . » [22] .

وكان من أعوان يعقوب فى قهر المصريين بعض المسلمين . فيذكر الجبرتى من حوادث ١٨ ربيع الثانى ١٢١٦ (أول سبتمبر ١٨٠١) أن السلطات العثمانية التى كانت احتلت القاهرة بعد أن انسحب منو إلى الإسكندرية قد اعتقلت « مصطفى الطارانى » وحصّلت منه « خمسة عشر ألف ريال . ومصطفى هذا كان كلارجيا (أى أمين مخزن لأعدبه) عند قائد أغا (أى رئيس الأنكشارية) فلما خرج الأمراء (أى المماليك بعد دخول الفرنسيين) تقيد مقدما عند بونابرته ثم عند كلبير . فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطى وتولى أمر الفرد وجمع المال تقيد بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضربهم . فكان يجلس على الكرسى وقت القائلة (الظهيرة) ويأمر أعوانه بإحضار أفراد المخصوصين من التجار وأولاد الناس فيمثل بين يديه ويطالبه بإحضار ما فرض عليه مما لا طاقة له به ولا قدرة له على تحصيله فيعتذر بخلو يده ويترجى إمهاله فيزجره ويسبه ويأمر بضربه . ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أعوانه أن يذهب إلى داره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيس ويهجمون على حرمه ... » [23] . وقد تم إعدام مصطفى هذا فى ميدان باب الشعرية بعد ذلك بأقل من شهرين

هذا وقد كافأ منو المعلم (الكولونيل) يعقوب على خدماته المخلصة للفرنسيين ، وبخاصة فى تلك الأيام المضطربة الحافلة بالأحداث بمنحه رتبة « جنرال » ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ .

قصيدة غير عصماء

غير أن يعقوب أصيب فى عهد منو بصدمة عاطفية هزت أعماقه ، بعد بلمه — متأخرا — خبر مصرع صديقه وحبيبه الوسيم الجنرال ديسيه . كان ديسيه قد غادر مصر فى عهد كليبر بدعوة من بونابرت لينضم إليه فى حربه مع النمسويين ، فقتل فى معركة مارنجو (Marengo) الشهيرة التى دارت عند إحدى القرى الإيطالية يوم ١٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، وهو نفسه يوم مصرع كليبر . ويقول جستون حمصى إن المعلم يعقوب حزن لوفاة صديقه ديسيه — وكان فى الثانية والثلاثين — حزنا شديدا ، وكتب إلى الجنرال منو يعرض عليه دفع ثلث تكاليف بناء النصب المزمع إقامته تخليدا لذكرى « الرجل الذى رحل قبله » . وكانت سلطات الحملة قد فتحت اكتتابا لإقامة هذا النصب بين جنودها [24]

وأراد يعقوب كذلك أن يعبر للمسئولين الفرنسيين عن حزنه بطريقة مبتكرة ، وذلك بأن يرسل مرثية شعرية إلى حكومة باريس ! فكلف صديقه الأب روفائيل أن ينظم له قصيدة بما أراد ، فنظمها هذا فى خمسة وثلاثين بيتا ، وأرسلها يعقوب بالفعل إلى فرنسا . ولابد لنا هنا من

وهذه مأساة نتأمل فيها هذا العمل ودلالاته . ولكن ينبغي قبل التعرض لمضمون هذه القصيدة وبنائها أن يتعرف معنا القارىء على ناظمها ، فمن هو روفائيل ؟

الأب روفائيل أو رفايل (١٧٥٨ – ١٨٣١) اسمه الأصلي أنطون زخورة راهبة ، وهو من أسرة سورية معروفة تنتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك . ولد في مصر وفيها تعلم ثم أكمل تعليمه الديني في إيطاليا وأتقن عدة لغات وتنقل بين مصر وسوريا وإيطاليا حيث عمل بالترجمة ، ثم استقر في مصر حتى وصلت الحملة الفرنسية فالتحق بالعمل فيها مترجما ، وكان الشرقي الوحيد الذي عينه الفرنسيون عضوا بالمجمع العلمي (في لجنة الفنون والآداب) وهناك أسهم في إعداد بحوث وترجمة الوثائق التي ساعدت علماء المجمع في إعداد كتاب « وصف مصر ». وتولى روفائيل كذلك مهمة الترجمة الفورية في كثير من جلسات ديوان القاهرة ، كما ترجم عددا من المراسيم والمنشورات والمطبوعات التي أصدرتها الحملة ، ومنها محاضر محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر ، وكتيب عن مرض الجدري أصدره « ديجنت » (Désgenettes) كبير أطباء الحملة . وقد رحل روفائيل بعد الحملة إلى فرنسا حيث عمل بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم عاد إلى مصر في عهد محمد علي وعمل بالترجمة لحكومته ، كما أسهم في إنشاء مطبعة بولاق ، وترجم من الإيطالية كتاب « الأمير » لمكيافيللي الذي كان أول ما أخرجته مطبعة بولاق من كتب

وإلى جانب الإشارات القليلة المتناثرة عن روفائيل في مراجع الحملة وعهد محمد علي ، وفي كتاب الجبرتي ، فقد أمدنا بتفصيلات حياته من بعض مقالات كتبها بالعربية والفرنسية اثنان من أبناء قومه هما الخوري قسطنطين الباشا ، وشارل بشاتلي ، ومنهما وحدهما عرفنا أن روفائيل حاول قرض الشعر إلى جانب عمله في الترجمة ، وأنه هو الذي نظم

قصيدة يعقوب ولكنهما اكتفيا بالإشارة إلى ذلك دون أن ينشرا بيتا واحدا منها . وقد عثرنا على النسخة الأصلية للقصيدة التي بعث بها يعقوب ومعها ترجمتها الفرنسية في بعض مخطوطات وزارة الحربية بباريس . ومن فحص مخطوط القصيدة وإمعان النظر في مبناها ومعناها نستطيع أن نخرج ببعض الدلالات المهمة عن ناظمها ومرسلها

القصيدة مقدمة على شكل لوحة جميلة ، فهي على ورق جيد شبه صقيل يمتاز عن الورق المعتاد في ذلك العهد. وقد استخدم كاتبها وواضح أنه خطاط محترف ـــ خط النسخ الجميل في كتابة النص ، مع بعض عبارات في المقدمة بخط الثلث . ورأس هذه اللوحة مزين بالزخارف الدقيقة الملونة والمذهبة ، وكذلك استخدمت الوحدات الزخرفية الملونة في الفصل بين أشطر الأبيات. ويعلو اللوحة تكوين زخرفي عليه عبارة « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهي كما نعلم جزء من الآية القرآنية « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون »

وتلي ذلك مقدمة نثرية مسجوعة تقول بما يشبه أن يكون أسلوبا إسلاميا نمطيا « الحمد لله محرك آلات الأنس الأوانس . بأنسام النفحات الدوامس ، وكاشف الغطاء الدلامس ، عن الآثار الدوارس . نحمده حمدا وشكرا لائقا بإله مبدع وخالق ، بارئ البريات والخلائق ، مكون الأرض والسموات ، مصور الأحياء والأموات ، مميز العاقل من الخسائس ، فلا إله غيره ، ولا خير إلا خيره ، وهو المالك والـــبيس ، آمين » . وواضح من هذه المقدمة افتعال صاحبها في استخدام الألفاظ التي تناسب سجعه حتى ولو لم تناسب المعنى ، وغموض بعض العبارات وركاكتها ، والخطأ في اشتقاق بعض الألفاظ

ثم يمهد الكاتب لأبيات القصيدة بهذا المدخل الذي يقول بالنص « وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد ، به نتحسب وفاة عزيزه ، الجنرال

باسمه ، صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد ، بقوله » . ولا يخفى على القارىء ما يتضمنه هذا التمهيد على قصره من أخطاء فى تقسيم العبارات وإرجاع الضمائر ، بل وهجاء الألفاظ (شكل ٣)

أما أبيات القصيدة التى لم تنشر من قبل ، والتى لا تخلو من طرافة ، فهذه مختارات منها بنصها

أدرفا على ذكر الحبيب دموعا
سكرنا بها ليوم البعث والحشر
حبيب وقد داع صيته أبدا
بطل وقد عرف فى سائر القطر
فتلألأت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنثر
وقد فاز بها على المماليك إجلالا
ظافرا بأرقابهم نصرا بالعز والقهر
وأصبح نشاخ جماعة البربر
مروضا أخلاق أهل إقليمنا المصر

○ ○ ○

فاها على ناصرى داسه ورا اسفى
على اصطحابى به لو قدر القدر
فكنت أرغب وجودى بجدانى ماربحوا
كما رافقته قبلا بصعيدنا المصرى
فموتى عنه فداه كاد يغنيه
عن فقد حياة مفيده ذكرها دهر

ولم يزل بفكرى مخلدا أبدا
حتى أن خروج الروح من صدرى

○ ○ ○

جد عين بحفظ العين مترأفا
وانظر الى بأسى برقة النظر
فانظر إلى ضعفنا وشقاء حالته
فعدت حياتنا لا تخلوا من الكدر
لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما
وعبيدا غدوا الآن للرق واليسر

○ ○ ○

وعينا للفرنسيس فلا بد عنها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر

ومن حيث الشكل فإن هذه الأبيات المتهالكة المبنى الواهية التركيب الحافلة بأخطاء النحو والصرف والهجاء قبل أخطاء العروض ، تدل على أن ناظمها لم يكن يحظى بأية موهبة شعرية ، وأن محاولته قرض الشعر باءت بالفشل الذريع ، كما تدل على أن لغته العربية نفسها كانت ضعيفة متهافتة ، الأمر الذى تؤكده ترجماته فى المنشورات وغيرها من وثائق الحملة ، ثم فى كتاب مكيافيلى الذى ترجمه لمحمد على والذى قال عنه جاك تاجر إنه « حرص فيه على حفظ المعنى ولو أنه استعمل العبارات الركيكة التى كان استعمالها شائعا فى هذه الفترة » [٢٥]

أما مضمون الأبيات وهو الذى أوحى به يعقوب لناظمها ، فإنه يحوى عددا من المعانى ذات الدلالات المهمة على أفكار يعقوب وموقفه من الحملة ، والمعانى التى تتصل بعلاقته الخاصة بصديقه الذى يرثيه إننا نستطيع بالرغم من العيوب اللغوية والشعرية للقصيدة أن نستخلص منها ما يلى

شكل (٣) رثاء يعقوب للجنرال ديسيه (الشعر بثلاث رواسم)

يشيد المعلم يعقوب بصديقه ديسيه « فاتح بلاد بناحية قبلي » ويصفه بأنه صديق مجاهد شجاع عادل فطن .

— يذكر بالشماتة انتصار ديسيه على المماليك وإذلاله لهمج « أنجس تشاغ جماعة البربر » وكلمة « بربر » (Berber) ما تعني الهمج ، وهي لاشك من أثر معرفة روفائيل للفرنسية . ولعل يعقوب يقصد بها سكان الصعيد بعامة الذين قاوموا زحف ديسيه ، أو لعله على أحسن الفروض يقصد جماعات البدو الذين انضموا إلى قوات المماليك في مقاومة الغزو الفرنسي . ويتكرر ذكر البربر في القصيدة ويوصفون بأنهم « أعداء الله والبشر » .

— يقول إن المصريين كانوا قديماً شعباً عظيماً ، ثم غدوا (تحت الحكم الإسلامي بالطبع) عبيداً للرق والأسر ، وأن الفرنسيين هم الذين خلصوهم من الذل والعبودية .

— يصور سوء حال المصريين بعد رحيل ديسيه ويخاطب الفرنسيين في شخص صديقه الراحل معرباً عن خشيته من أن تعود مصر إلى سابق عهدها من الذل والقهر إذا ما تم الصلح (وكان وشيكاً متوقعاً) وأخلاها الفرنسيون . ويناشدهم ألا يدعوا مصر « لسابق القهر » وألا يتركوها لحاكم « يسوس بالقسر » .

لم ينس يعقوب كذلك أن يجامل بونابرت ويشيد بانتصاراته « وما خصه الله من المعظمات والقدر » .

— يؤكد أكثر من مرة حب قومه للفرنسيين « لأنهم أعتقونا من الأضرار والشر » .

أما على المستوى الشخصي فهناك ملمح لا تخطئه العين في أبيات هذه القصيدة . إننا نستطيع أن نستشف مما تتضمنه من عواطف مسرفة أن العلاقة بين يعقوب وصاحبه كانت شيئاً أكبر من مجرد الصداقة أو الولاء . إن حزن يعقوب على ديسيه يكاد يكون حزن عاشق وهان .

فهو يكرر في ذكره كلمة الحب ومشتقاتها ، وهو يتمنى أن لو كان قد مات فداء له (في معركة مارنجو) ويؤكد أن فقيده لم يزل يفكر فيه عندما بدا حتى الى خروج الروح من صدره . ثم هو يناجيه بقوله « جد علي بلحظ العين » ، ويناشده أن يرأف به وأن يمنحه نظرة تضيء كسنا برق . ويصور انتقاله الى الملكوت الأعلى تصويرا رومانسيا . يذكر فيه جمال نفسه والنور الذي يحيط بروحه ويضيء على العالم كالقمر « متزينا ببهاء أشعة الحب للبشر » .

من الواضح إذن أن العلاقة التي كانت تربط يعقوب بديسيه علاقة حميمة جدا . فقد صحبه صحبة كاملة طيلة أكثر من عام حتى تعلق به تعلقا شديدا كما يقول مؤرخه جاستون حمصي . ويروي الجنرال بليار في مذكراته ، وكان من ضباط ديسيه في حملة الصعيد ، الكثير عن الأمسيات الطويلة التي كان يحييها ديسيه في منزله بأسيوط ويحضرها يعقوب مع ضباط الحملة ، وكذلك الأمسيات الهادئة التي كان يحييها يعقوب في منزله لديسيه وضباطه . وكانت السهرات تمتد في هذه الأمسيات وتلك ، والأحاديث تدور حول شتى الموضوعات (٢٦) .

ومهما يكن من أمر فلا نستطيع أن نؤكد هذه العلاقة الشخصية أو أن نجزم بشيء عن مدى ما وصلت إليه بين الرجلين . كل ما يمكن قوله في هذا الصدد أنها حفرت في نفس يعقوب خطا عميقا . وكتاب الجبرتي على أية حال حافل بذكر علاقات حميمة كثيرة قامت بين بعض المصريين وبعض الفرنسيين أيام الحملة ، وفي مقدمتها ما ذكره عن علاقة صديقه الأديب المعروف الشيخ اسماعيل الخشاب بشاب من ضباط الجيش الفرنسي .

نهاية الحملة .. والرحيل

اقتربت أيام الحملة من نهايتها ، وتهاوت أحلام منو الاستعمارية في أن يجعل من مصر ، لا مجرد قطر احتله الفرنسيون بالغزو ، وإنما قطرا تم ضمه الى فرنسا (Pays annexé) ، هذا بالرغم من تظاهره باعتناق الإسلام الذي لم يستطع أن يقنع به أحدا من المصريين . وذلك كما تهاوت من قبل أحلام بونابرت في أن يؤسس في هذا الجزء من العالم ملكا جديدا يقوم على أسس تمزج بين الحضارة الإسلامية ومبادىء الثورة الفرنسية ... الخ . وغادر منو القاهرة الى جبهة الاسكندرية ، بينما بقي نائبه (قائمقامه) بليار يدافع عن العاصمة ، ويحاول جهده أن يحفظ ماء وجه الحملة ، قبل الجلاء الذي لم يعد منه مفر ، الى آخر قطرة .

وواصل الجيش العثماني زحفه نحو القاهرة ، وواصل الجيش الإنجليزي كذلك زحفه من رشيد ، تاركا منو محاصرا في الاسكندرية . وزاد من حرج موقف الفرنسيين انتشار الطاعون وفتكه بعدد كبير من الأهالي والجنود . ومن ثم قرر بليار مع سائر قواده عدم انتظار تعليمات منو ، والمضي في مفاوضة العثمانيين والإنجليز فورا لعقد اتفاق على أساس الجلاء الكامل عن مصر . وهكذا وقع بليار اتفاقية لم تختلف موادها كثيرا عن

مواد اتفاقية العريش التي وقعت من قبل في عهد كليبر ثم نقضت . وكان ذلك في أواخر يونيو ١٨٠١ .

ولم يعلم منو بتوقيع نائبه بليار لهذه الاتفاقية إلا متأخرا . وقد ثار عندما اطلع على شروطها ، ولكنه لم يلبث أن وقع هو نفسه في آخر أغسطس اتفاقية مماثلة للجلاء عن الاسكندرية

وقد تضمنت اتفاقية بليار للجلاء مادتين تهمان سكان القاهرة بوجه خاص ، هما المادتان الثانية عشرة والثالثة عشرة ، فرأى بليار إذاعتهما وحدهما في منشور خاص بالعربية والفرنسية موجه منه الى « جميع أهالي محروسة مصر (أي القاهرة) وقدم بليار لنص هاتين المادتين بعبارة قال فيها إن إرادة الله تعالى قضت « بالصلح ما بين عساكر الفرنساوية وعساكر الإنجليز وعساكر العثمانية . » ثم استدرك بطمأنة الأهالي الى أن هذا الصلح لايعني الناس بأشخاصهم أو عقائدهم أو أملاكهم وأكد لهم أن « رءوس عساكر الثلاثة جيوش قد اشترطوا بينا » . أما نص المادتين فهو كما جاء بالمنشور :

الشرط الثاني عشر : كل واحد من أهالي مصر المحروسة من كل ملة كانت الذي يريد يسافر مع الفرنساويه يكون مطلوق الإرادة وبعد سفره كامل ما تبقى أعياله ومصالحه لم أحدا يعارضهم (في النص الفرنسي لا تصادر ممتلكاتهم) .

الشرط الثالث عشر لا أحدا من أهالي مصر المحروسة من كل ملة كانت لا يكون مقلقا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه ، جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنسي بمدة إقامة الجمهور بمصر . ولكن الواجب يطيعون الشريعة (في النص الفرنسي قوانين البلاد) .

وختم بليار هذا المنشور بعبارة وجهها إلى « أهالي مصر وأقاليمها جميع الملل » قال فيها إن الفرنسيين لم يكفوا حتى اللحظة الأخيرة عن العمل

على راحة الأهالي وأمنهم ، وعلى ذلك « يلزم أنتم أيضا تسلكوا في الطريق المستقيمة وتفتكروا ان الله تعالى جل جلاله هو الذي يعمل كل شيء والسلام » . وبناء على ذلك فقد أمن على نفسه وماله وعياله كل من تعاون مع الفرنسيين في أثناء الاحتلال ، واستعد من يريد السفر منهم مع الحملة المنسحبة إلى فرنسا وفي مقدمة هؤلاء وأولئك المعلم يعقوب (شكل ٤) .

بعد أيام قليلة من صدور هذا المنشور أرسل ابراهيم بك الذي كان يصحب القوات العثمانية الزاحفة إلى القاهرة « أمانا لأكابر القبط فحضروا . وسلموا ورجعوا الى دورهم » . أما يعقوب الذي كان يشترك بفيلقه في حماية ظهر قوات بليار بالقاهرة ، فقد خرج بمتاعه وعدى الى الروضة وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى ، واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام (بليار) وبكوا وولولوا وترجوه في إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم أنه يرسل الى يعقوب أنه لا يقهر (أي لا يرغم) من لا يريد الذهاب والسفر معه[٢٧]

واستطرد الجبرتي إلى ذكر الآخرين الذين فضلوا الهجرة مع الفرنسيين فقال « خرج المسافرون مع الفرنساويه الى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين وبعض مسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف ، وكثير من نصارى الشوام والاروام مثل يني وبرطلمين (بورتلمي الذي كانت العامة تطلق عليه فرط الرمان) ويوسف الحموي وعبد العال الأغا يحضر الذي طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله » وكان عبد العال هذا أغا الانكشارية ، أي قائدهم ، وقد أذاق القاهريين الكثير من بطشه وجبروته . وبعد نحو شهر من خروج هؤلاء المهاجرين مع

القاهرة كتب الجبرتي يقول إنه « حضرت جماعة من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا إلى مصر (القاهرة) » [٢٨]

ومؤدى كلام الجبرتي في الفقرات السابقة أن معظم عسكر المعلم القبطي رفضوا السفر مع يعقوب إلى فرنسا ، وأن ذويهم أقاموا مناحة أمام نائب القائد العام حتى لا يرغم أحد من أبنائهم على السفر مع قائدهم السابق ، وأن من كانوا قد صحبوا العسكر المنسحبين (ربما لتأمين الطريق) قد عادوا بإرادتهم إلى العاصمة مرة أخرى .

ولا شك أنه مما ساعد على اطمئنان أبناء الأقباط ، وبخاصة الأقباط ، إلى البقاء في « مصر المحروسة » مفضلين ذلك على مخاطر السفر إلى المجهول صحبة يعقوب ومن معه حرص السلطات العثمانية التي دخلت القاهرة على تكرار المناداة بالأمان وتأكيد القول بالفعل ، في محاولة دائبة لاكتساب تأييد ساكني مصر جميعا ، وللحيلولة دون حدوث أية اضطرابات طائفية تخل بالأمن ، مما أشاع جوا من التسامح والتجاوز عن الماضي والشعور بضرورة بدء صفحة جديدة في العلاقات بين مختلف طوائف السكان . فبعد أقل من شهر من توقيع اتفاقية الجلاء عن القاهرة « نودي بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصراني ولا يهودي سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا ، فإنهم من رعايا السلطان والماضي لا يعاد ..... » [٢٩] .

ولم يقتصر الأمر على القاهرة بل امتدت هذه الحملة الدعائية إلى الأقاليم ، مع التماس العذر لمن تعاون مع الفرنسيين . ويقول الجبرتي « كتبت فرمانات (أي منشورات) وأرسلت إلى بلاد الشرقية والمنوفية والغربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة وعدم التعرض لهم وفي ضمنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم » [٣٠] .

شكل (٤) اتفاقية الجلاء عن مصر

LE GENERAL DE DIVISION

BELLIARD,

Commandant le Kaire et les Troupes de l'Arrondissement,

Aux Habitans du Kaire, de toutes les Religions.

PAR la volonté de Dieu tout puissant, la paix vient de se conclure entre les armées française, anglaise et ottomane ; mais par cet arrangement vos personnes, vos religions et vos propriétés ne cesseront d'être respectées. Les trois puissances en prennent l'engagement formel, comme vous pouvez en juger par les deux articles du traité de paix [illegible] ci-après.

ART. XII.

« Tout habitant de l'Égypte, de quelque « religion qu'il soit, qui voudra suivre l'armée « française, sera libre de le faire, sans qu'après « son départ sa famille soit inquiétée ni ses « biens confisqués. »

ART. XIII.

« Aucun habitant de l'Égypte, de quelque « religion qu'il soit, ne pourra être inquiété « ni dans sa personne ni dans ses biens, pour « les liaisons qu'il aurait eues avec les Fran- « çais pendant leur occupation de l'Égypte, « pourvu qu'il se conforme aux lois du « pays. »

Habitans du Kaire et de l'Égypte de toutes les religions, vous voyez que jusqu'au dernier moment les Français n'ont cessé de veiller à votre repos et à votre [illegible] ; montrez-vous dignes de tout ce que nous avons fait pour vous, en ne vous écartant pas de la bonne voie ; songez toujours que Dieu est puissant, que c'est lui qui dirige toutes choses.

Le Général de Division,

Signé BELLIARD.

وأكثر من هذا فإن العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على أن يستعينوا بكتبة الأقباط وصيارفتهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسي ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففي شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « قرئت فرمانات (أي منشورات) صحبة عثمان كتخدا (نائب الوالي العثماني) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملطي ، وتقدمهم في تحرير الأموال الميرية .. » (٣١) .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطئ رشيد لتنقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتمصرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حبيب وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثماني حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تنتفع السلطات العثمانية التي استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بني قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهي السفينة

وأكثر من هذا فإن العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على أن يستعينوا بكتبة الأقباط وصيارفتهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسي ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففي شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « قرئت فرمانات (أي منشورات) صحبة عثمان كتخدا (نائب الوالي العثماني) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملطي ، وتقدمهم في تحرير الأموال الميرية .. » (٣١) .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطئ رشيد لتنقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتمصرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حبيب وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثماني حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تنتفع السلطات العثمانية التي استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بني قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهي السفينة

٥٠

نفسها التي أقلت الجنرال بليار وعددا من جنوده وضباطه . وأبحرت
بالاس بقيادة القبطان جوزيف إدموندس (J. Edmonds) في
١٠ أغسطس متجهة أولا الى قبرص وساحل شبه جزيرة سيناء
المصرى . وبعد أن أقلعت السفينة بيومين أصيب يعقوب بالحمى ،
وما لبث ان اشتد عليه المرض ومات في عرض البحر ، بعد أربعة أيام ،
في ١٦ أغسطس . وقد كانت آخر كلماته وهو يحتضر للجنرال بليار
ان يدفن مع صديقه ديسيه في قبر واحد !

ولم يلق ربان السفينة بجثة يعقوب الى البحر كالمعتاد في مثل هذه
الحالة ، بل استمع الى رجاء من معه فاحتفظ بالجثة في دن من الخمر
حتى وصلت السفينة الى مرسيليا . وهناك تم دفنها في جبانة المدينة

قصة مشروع الاستقلال

لم تنته حكاية المعلم يعقوب بإبحاره من الشواطىء المصرية
ولا بوفاته ، وانما على العكس بدأت بذلك قصة من أغرب القصص
التي ذيل بها تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ، والتي شغلت غرابتها عددا
من المؤرخين ، ذهبوا في تأويلها والتعليق عليها مذاهب شتى تأرجحت
بين الحقيقة والأسطورة . ويشارك يعقوب بطولة هذه القصة مغامر
أوروبي شاب اسمه تيودور لاسكاريس (T. Lascaris) ، وهو شخصية
غامضة مبهرة ، ظهر على مسرح الأحداث مع يعقوب منذ أقلعت
السفينة بالاس بعد وفاة « المعلم » فمن هو لاسكاريس هذا ؟

ولد لاسكاريس عام ١٧٧٤ من أسرة إيطالية نبيلة (أى أنه كان
وقت الرحيل عن مصر في السابعة والعشرين من عمره) ، وانخرط هو
وأخ له في سلك فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ، التي غزاها
بونابرت وهو في طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨ ، وانتزعها من أيديهم
وقضى على سلطتهم (شكل ٥) . وهؤلاء الفرسان هم الذين أشار
اليهم بونابرت في منشوره العربي الأول الى المصريين بكلمة
« الكوالليرية » ، وهى تعريب للكلمة الإيطالية (Cavaleri) بمعنى

شكل (٥) الفارس لاسكاريس



فرسان ، فقال بالنص « إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون خالصون ، وإثباتا لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرا (كذا) وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دايما النصارا (كذا) على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالليريه الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .. » (شكل ٦) . وتقول بعض مراجع الحملة ، بل ويقول بونابرت نفسه فى مراسلاته إن الأخوين الفارسين كانا مصابين بلون من الهوس وشذوذ الأهواء وإن كان يظهر أخف حالة من أخيه الذى وصل به الأمر إلى حد الجنون .

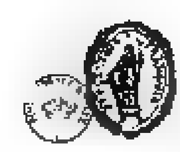
كان تيودور لاسكاريس ذا عقل مغرق فى الخيال ، وقد صحب حملة بونابرت الى مصر ، وهناك تقلد بعض المناصب الإدارية فى خدمة حكومة الحملة وأطلق لاسكاريس لخياله العنان فأخذ يقترح على سلطات الحملة — وبخاصة أيام منو — عدة مشروعات غير عملية ولا مدروسة ، مثل إقامة عاصمة جديدة لمصر عند تفرع النيل برأس الدلتا يطلق عليها اسم « منو بوليس » تخليدا لاسم الجنرال منو ! ومثل عكس من ضبط مياه النيل واسترزاع الصحراء ... الخ . وقد قدم لإحدى رسائله إلى عبد الله منو التى ذكر فيها بعض هذه المشروعات بديباجة تلقى الضوء على تكوينه العقلى وأسلوب تفكيره . قال لاسكاريس لمنو « إن القدر يجىء بكل إنسان فى هذا العالم الطريق الذى يسلكه . فهناك من هيأ له القدر أن يكون من الفرسان الماهرين ، وهناك من قدر له أن يكون مجرد صانع أحذية ومن الناس من قدر له أن يكون من مؤسسى الدول ومشرعين ، بينما قدر لآخرين أن يقيموا الأسر ويسيروا الأعمال .. الخ » أما هو فقد قدر له أن يكون « من أصحاب المشروعات » . ويقول « إننى كثيرا ما ارتفع بنفسى فوق عالم الواقع لكى أخطط لمشروعاتى ، وأترك لخيالى أن يذلل كل ما قد يعترضها من عقبات آه ما أجمل الخيال ، إنى لأجد فيه سعادتى » ولكن منو لم يأخذ مشروعات لاسكاريس يوما مأخذ الجد ، بل كان كثيرا ما يحلو له أن يمزحه ويسخر من خيالاته ويعرض عما يتلبسه من

حرق العظمة (٣٤) .

غير أنه ينبغي أن نتوقف عند مشروع واحد من مشروعات لاسكاريس الحالم ، لأنه كان محور القصة التي جرت أحداثها على سطح الفرقاطة پالاس بعد وفاة المعلم يعقوب ، ولأنه هو الذي جمع بين الرجلين منذ البداية على أرض مصر قبل مغادرتها ببضعة أشهر . لقد فكر لاسكاريس في أن تستقل مصر من حكم العثمانيين وأن تتخلص كذلك من طغيان المماليك ، وذلك بمساعدة فرنسا وحمايتها . ولكن مادامت احتمالات جلاء الفرنسيين عن مصر قائمة (كان ذلك في عهد منو) ، فلا سبيل إلى تحقيق ذلك الهدف إلا بأن تدعم معنويات حملة الفيلق القبطي بحيث تكون كفته هي الراجحة في أي قتال ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة في البلاد من جانب العثمانيين أو المماليك . واستكمالا لمشروعه اقترح لاسكاريس أن يترك الفرنسيون عند جلائهم عن مصر ذخيرة حربية كافية ، مع قوة من الجيش تنسحب جنوبا نحو إقليم النوبة مغطية رفضها الجلاء مع سائر قوات « جيش الشرق » . وسوف يسهل على هذه القوة فتح إقليم النوبة والاستقرار به حتى تستدعي الأمور انحدارها ثانية نحو الشمال لمساندة الفيلق القبطي . والغريب أن لاسكاريس استطاع أن يقنع بالخطوط العامة لمشروعه بعض الفرنسيين ، مثل المستشرق مارسيل والجنرال ديبوى (حاكم القاهرة) ، هذا إلى جانب الجنرال يعقوب بالطبع (٣٣) .

ولكن الجنرال منو سخر كعادته من أحلام لاسكاريس ولم يقتنع مطلقا بمشروعه . ويقول شفيق غربال إنه حالت دون اقتناع القائد الفرنسي « قلة ثقته بالعارف وبالأقباط عامة ويعقوب خاصة » وإن كان هذا لم يمنع منو من أن يمضي في الإفادة من جهود كل من لاسكاريس ويعقوب . وتقول وثائق الحملة إن منو ألحق لاسكاريس بالعمل مع يعقوب لكي يعاونه في إنشاء شبكة تجسس على العثمانيين وحماتهم تمتد

شكل (٦) منشور بونابرت الأول



بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه

إلى سوريا. وبعث القائد برسالة إلى يعقوب تخصص هذا المعنى، وكان ذلك في مارس ١٨٠١ عندما تأزمت أمور الحملة وأوشك الفرنسيون على تسليم مصر إلى العثمانيين. وهكذا لازم لاسكاريس يعقوب منذ ذلك الحين حتى غادرا مصر سويا، أي طيلة خمسة شهور. وكانت هذه عشرة ولاشك أثرها في القصة التي جرت أحداثها فوق سطح السفينة بالأمس

مسرحية بحرية

تبدأ هذه الأحداث بعدة لقاءات بين يعقوب وقبطان السفينة، الذي قدر مكانة يعقوب في قومه ولدى الفرنسيين على السواء، فخصه بشيء من الحفاوة والتكريم. وفي هذه اللقاءات تبادل الرجلان عدة أحاديث كان لاسكاريس يقوم خلالها بدور المترجم بينهما. وقد دارت موضوعات الأحاديث حول مصر، حاضرها ومستقبلها. وفيها أدان يعقوب من خلال مترجمه الحكم العثماني لمصر ووصفه بأسوأ النعوت وقال إنه أيد الاحتلال الفرنسي للتخفيف مما حاق بمواطنيه من أذى وما وقع عليهم من ظلم واضطهاد. وأضاف يعقوب للقبطان إدموندس من خلال لاسكاريس إنه غادر بلاده سعيا وراء تحقيق استقلالها عن الدولة العثمانية. وواضح أن مضمون هذا الكلام يشبه أفكار لاسكاريس التي سبق أن عبر عنها في مشروعه الذي قدمه إلى الجنرال منو قبل أن يلتحق بالعمل مع يعقوب

ولما كان ميزان القوى قد مال، وانتهى الوجود الفرنسي بمصر على يد العثمانيين والإنجليز معا، ولما كان يعقوب يبحر هو ومن معه على سفينة إنجليزية ويتحدث إلى قائدها الذي أكرمه وكان به حفيا، فقد رأى هو

أو مترجمه أو هما معاً — أن من الكياسة ألا يشير إلى فرنسا المهزومة بوصفها القوة الأوربية التي سوف يعتمد عليها في تحقيق انسلاخ مصر عن الدولة العثمانية ، وأن من حسن السياسة أن يحول الدفة مع تحول الريح نحو بريطانيا . ومن ثم قال يعقوب في أحاديثه مع الربان الإنجليزي إنه عندما رأى أن يعتمد في تحقيق غايته على فرنسا لم يكن يدرك مدى قوة بريطانيا . أما الآن فقد أيقن أن الفرنسيين خدعوا المصريين وأن مواطنيه يحتقرونهم اليوم كما كانوا يحتقرون الأتراك من قبل ، وأن تحقيق ما يسعى إليه مستحيل بدون تأييد الحكومة الإنجليزية ! ! ومن ثم فهو يرجو القبطان إدموندس أن يبلغ هذا الموضوع إلى رئيسه قائد البحرية ليرفعه بمعرفته إلى حكومته .

وأراد لاسكاريس أن يضفي على هذه الأحاديث التي لم تستمر لأكثر من يومين (بين إبحار الفسيبة ومرض يعقوب) أهمية خاصة ويسبغ عليها طابعاً رسمياً ، فأضاف إلى ما ذكره يعقوب من خلاله لإدموندس أن الجنرال يعقوب إنما يسافر على رأس « وفد مصري » اختاره أعيان البلاد ليفاوض الحكومات الأوربية المعنية في موضوع استقلال مصر .

* * *

ويبدأ الفصل الثاني من القصة بعد وفاة يعقوب ، عندما قرر لاسكاريس ، وقد انفرد بمسرح الأحداث ، أن الوفد المصري باقٍ رغم موت رئيسه . واتفق مع إدموندس على أن يعد له مذكرة يسجل بها الموضوعات التي دار حولها حديث بينه وبين يعقوب قبل موته ، لكي يرفعها إدموندس إلى حكومته عن طريق رئيسه الأدميرال اللورد كيث وتعهد له إدموندس بذلك ، وبأن يحفظ الأمر سراً حتى لا يتسرب إلى جهة قد تفسد خطته .

وقد عكف لاسكاريس بالفعل في ميناء طولون على كتابة مذكرة

بالفرنسية من عدة أجزاء ، وسلمها للربان الإنجليزي . وهي مؤرخة ٢١ سبتمبر ١٨٠١ بعد أن كانت « بالاس » قد ألقت مراسيها في هذا الميناء ببضعة أيام .

وتقع مذكرة لاسكاريس في إحدى عشرة فقرة مرقمة ، تتناول كل منها جزئية من جزئيات الموضوع . ويلفت النظر في هذه المذكرة أن بعض العبارات تتخللها فراغات ويبدو أن الكاتب لم يجد الكلمات المناسبة لملئها ، وأن عبارات أخرى قد أكدها صاحبها بوضع خط تحتها .

قدم لاسكاريس لفقرات مذكرته بقوله : « مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته » . ويمكن تلخيص أهم ما تضمنته هذه المذكرات من نقاط وإشارات فيما يلي :

١ — ناشد لاسكاريس إدموندس أن يؤيد وجهة نظره عند عرض الموضوع على قائده ، حتى يكون هذا سنداً له لدى الحكومة البريطانية .

٢ — قال إن مصر جديرة بأن تؤيد الحكومات الأوربية مشروع الوفد الذي فوضه المصريون ، إن لم يكن من أجل ماضيها العريق واعترافاً بفضلها على الحضارة ، فعلى الأقل من قبيل العطف عليها .

٣ — أشار إلى احتمال أن تتقدم حكومة الجمهورية الفرنسية نفسها فيما بعد إلى الحكومة البريطانية باقتراح تؤيد فيه الآراء الموضحة بالمذكرة . وإذا حدث ذلك فإنه سوف يكون بتأثير الوفد المصري في باريس ، مع ملاحظة أن تحقيق هذا المشروع ليس في صالح فرنسا بقدر ما هو في صالح بريطانيا .

٤ - حث الإنجليز على أن ينتهزوا هذه الفرصة التاريخية التي يوشك فيها الإمبراطورية العثمانية أن تتداعى من كل جانب ، فيضمنوا لأنفسهم السيطرة على مصر . وإذا كان من المستحيل على بريطانيا أن تستعمر مصر ، كما استحال ذلك على فرنسا من قبل ، فالأنسب أن تكون مصر مستقلة عن الدولة العثمانية ، وفي الوقت نفسه خاضعة لنفوذ بريطانيا سيدة البحار المحيطة بمصر . ولا شك أن بريطانيا بحكم مركزها الخاص في الهند سوف تفيد أكبر فائدة من السيطرة على التجارة مع مصر الغنية بمواصلاتها الوفيرة وبتجارتها مع قلب أفريقيا .

٥ - أكد أهمية إحكام النفوذ البريطاني لا مجرد السيطرة التجارية على مصر ، فقد تعود فرنسا كما كانت حليفة للباب العالي ، وعندئذ قد يحدث العثمانيون من الإجراءات ما يؤدي إلى تحطيم التجارة الإنجليزية في الشام والبحر الأحمر .

٦ - ندد بحكم الفرنسيين لمصر في أثناء احتلالهم لها ، وأشار إلى ما سبق أن تردد في الأحاديث مع إدموندس من كراهة المصريين لهم نتيجة لذلك . ثم أكد أن مصر المستقلة ، بعد أن أدرك أهلها حقيقة الإنجليز ، لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا .

٧ - اعتذر عن عدم الخوض في تفصيلات نظام الحكم لمصر المستقلة . فالتغيير المطلوب لن يكون نتيجة ثورة تقوم على أساس من آراء أو مبادىء معينة ، وإنما سيكون وضعا تفرضه قوة قاهرة على شعب مسالم جاهل لا يكاد يحرك أفراده سوى عاطفتي المصلحة والخوف . ومن ثم فيكفي أن ترفع الحكومة الجديدة قليلا من المستوى المادي للشعب فتنال تأييده ومساندته . ولا شك أن أي نظام للحكم سيكون أفضل من

الاستبداد التركي . فلتكن الحكومة الجديدة إذن حكومة حازمة وطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد (التي قضى عليها علي بك الكبير قبل الحملة الفرنسية بنحو ثلاثين عاما)

٨ - من حيث الدفاع قال إنه ليس من المتوقع أن تهاجم الدول الأوربية مصر ، ولكن هذه الدول تستطيع أن ترد عن مصر عدوان الأتراك والمماليك . وفي الوقت نفسه يستطيع المصريون أن يستخدموا على حسابهم قوة دفاع أجنبية يتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ ألف رجل يكفون تماما لحماية مصر من الأتراك والمماليك جميعا ، وتكون هذه القوة نواة جيش وطني . ثم إنه يمكن شراء ذمم العثمانيين بالمال حتى لا يفكروا في الهجوم على مصر .

٩ - من حيث الأمن الداخلي قال إن الشعب في مصر ينقسم إلى عدة طوائف ، وإن هذا يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض لحفظ التوازن بينها . وأكد أن الوفد المصري على صلات بهذه الطوائف جميعا دون ما تمييز ، وأن هذه الصلات لا يعلم بها جهاز الحكم التركي المستبد ، وإلا كانت العاقبة وخيمة على « الأخوة دعاة الاستقلال » .

١٠ - أكد أن المصريين عامة ، ووفدهم لدى الحكومات الأوربية بوجه خاص ، سيبذلون كل ما بوسعهم من جهد ليتحرروا من ذلك النير الذي يثقل كاهل بلادهم التعسة ، وأن المشروع السياسي الذي يسعى الوفد لتحقيقه هو في صالح الدول الأوربية جميعا ، بل وفي صالح تركيا كذلك .

١١ - قال إنه إذا خاب سعي المصريين ولم يحقق اتفاق الصلح العام أملهم ، وعاد العثمانيون إلى امتلاك مصر ، فإن المهاجرين

المصريين يرجون أن تحميهم الدول المتعاقدة ضمانا يقيهم شر انتقام السلطات التركية إذا ما رجعوا إلى وطنهم

١٢ – حذر من تسرب خبر هذه « المفاتحات » إلى فرنسا أو إلى أى طرف آخر يمكن أن يعرقل ما تمهد له من « معاوضات » . فمهمة الوفد هى إقناع الجانب الإنجليزى أولا بمشروعه ، والسعى لأن تكون بريطانيا نفسها هى البادئة بعرض الاقتراحات الأولى على بريطانيا .. وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الإنجليز بسبب العداء بينهم وبين الفرنسيين ، أو بسبب دسيسة من جانب فرنسا .

١٣ رتب طريقة الاتصال بالوفد المصرى فى باريس باستخدام « شفرة » خاصة ، وعن طريق صديق للوفد يقيم بأوربا (وهو مصرى قبطى اسمه انطون قسيس عمل طويلا فى خدمة امبراطورية النمسا مستظلا بحمايتها فى مصر ، ثم استقر فى فيينا وأصبح يدعى الكونت أنطون كاسيس A. Cassis) .

وينتهى الفصل الثانى من القصة بإقلاع ادموندس بسفينته الى جزيرة ميورقا غربى البحر المتوسط ، بعد أن يكون قد أدى المهمة الأساسية لرحلته ، فأفرغ حمولته البشرية بما فيها جثمان الجنرال يعقوب على الأرض الفرنسية

* * *

ويتسع مسرح الأحداث فى الفصل الثالث ليمتد من ميناء مرسيليا فى جنوب فرنسا إلى جزيرة مينورقا التى رسا بها إدموندس فعلى ظهر السفينة بالاس هناك أوفى القبطان الإنجليزى بما وعد ، فرفع مذكرة لاسكاريس مرفقة برسالة مؤرخة ٤ أكتوبر دفعها إلى إيرل سانت

فنسنت (S. Vincent) وزير البحرية البريطانية وقد آثر إدموندس أن يرفع مذكرة لاسكاريس رأسا الى الوزير متخطيا رئيسه المباشر اللورد كيث ، مع أن هذا هو ما كان مفروضا أن يحدث ، وهو نفسه ما طلبه يعقوب ولاسكاريس من إدموندس ، وذلك أخذا بالأحوط وإبراء لذمته ووفاء بعهده . وقد برر هذا التخطى الإدارى فى رسالته إلى الوزير فى بدايتها ونهايتها . لقد بدأها بقوله « استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتابى هذا اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم الوفد المصرى موجودون الآن فى باريس » . وختم الرسالة بقوله « ... رأيت من الضرورى إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، اذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن تتاح لى فرصة إبلاغها أولا الى قائدى العام اللورد كيث ، وآمل أن تتفضلوا فتقدروا مسلكى هذا » .

ضمّن القبطان إدموندس رسالته التى قدم بها المذكرات إلى الوزير خلاصة موجزة لما حدثه به يعقوب ، بعد أن أشار إلى أنه من زعماء طائفة الأقباط وله فيها نفوذ كبير ، وأن الفرنسيين جعلوه قائدا لفيلق من أبناء طائفته لينالوا تأييده وأكد أنه أعطى موثقا لمحدثه بألا يستخدم هو أو تستخدم الحكومة البريطانية ما أبلغه به استخداما يمكن أن يسيء إليه هو ومن معه . ولكن إدموندس أبدى تحفظه إزاء نقطتين .

١ – فقد تشكك فيما ذكره له لاسكاريس الذى كان يترجم بينه وبين محدثه من أن يعقوب يرأس وفدا موفدا من أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية فى استقلال هذا البلد » .. لا يمكننى تقدير مدى ما يحمله (الوفد) من تفويض وما يملكه من صلاحيات » .

٢ وكذلك تشكك فى حقيقة الدور الذى يقوم به لاسكاريس . فهل هو عضو فى هذا (الوفد) أم أنه مجرد سكرتير مترجم

يعقوب. ثم وصف لاسكاريس بأنه رجل « معرق في الخيال ».

ومازالت الوثيقتان (مذكرة لاسكاريس ورسالة إدموندس) مازالتا محفوظتين بوزارة الخارجية البريطانية. وكان أول من أشار إليهما الأستاذ شفيق غربال وأول من قدمهما بنصيهما (في كتاب طبع بمصر) المؤرخ الفرنسي جورج دوان (G. Douin) [34].

أما على الطرف الآخر من المسرح، فقد شغل المهاجرون الذين نزلوا إلى الشاطئ الفرنسي بتشييع جثمان يعقوب إلى مثواه الأخير في مقبرة مرسيليا. وبينما كانوا يقضون الإجراءات الصحية بمحجر الميناء كان لاسكاريس يعد لمشهد جديد. فقد بدأ يخطو خطوة أخرى يكمل بها محاولته الأولى مع الحكومة الإنجليزية، فحرر مذكرة بالفرنسية كذلك إلى « القنصل الأول » بونابرت. ولكنه للحيطة لم يوقع عليها، وإنما جعل التوقيع لشخص آخر من جماعة المهاجرين المصريين هو « نمر أفندي »، وذلك « نيابة عن الوفد المصري ». وصاحب هذه الشخصية التي ظهرت فجأة على مسرح الأحداث والتي تستر وراءها لاسكاريس هو سوري مسيحي كان يعمل مترجما للغات الشرقية في مصر، واسمه نصحي (أو لطف الله) نمر [35].

وتتضمن هذه المذكرة الموجهة « إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصري الذي يكن له أعظم التقدير » النقاط التالية:

- إشادة بتاريخ مصر القديم وحضارتها التي كان يتلقى عنها دروس العلم والمعرفة مشرعو الإغريق (مثل سولون).

- تنويه بإنجازات الجمهورية الفرنسية الناشئة في الحرب والسلم، وبخاصة تحت حكم بونابرت.

- إن الوفد المصري الذي فوضه المصريون « الباقون على ولائهم

لبونابرت » سيضعون لمصر من النظم ما يرتضيه لها القنصل الأول.

- تملق لبونابرت ومناشدة له أن يمد يد المساعدة « للمصريين التعساء » الذين حطم في الماضي أغلالهم ثم عادوا يرسفون بها من جديد، من أجل مجده ولمصلحة فرنسا.

- إشارة إلى « الفتح المعظم » الذي ناله بونابرت ثم فقده (بالجلاء عن مصر)، وتأكيد أن القائد الفرنسي إذا أيد في اتفاقيات الصلح أن تكون مصر مستقلة، فسوف يعوض هذا الموقف خسارته ثلاث مائة مرة.

ولم يكتف لاسكاريس بهذه المذكرة التي حاول بها إقامة جسر بين المهاجرين المصريين والحكومة القنصلية في باريس، وإنما أردفها بمذكرة أخرى إلى تاليران (Talleyrand) وزير الخارجية الفرنسية ووقعها كذلك « نمر أفندي ». وفي هذه المذكرة

- إعلان ولاء الوفد المصري - الذي فقد زعيمه يعقوب - وحبه للجمهورية الفرنسية.

- رجاء إلى الوزير الفرنسي بأن يحتضن ويضع الوفد ومجموعة المهاجرين في كنفه وتحت رعايته.

- تأكيد أن الوفد المصري يمثل شعب مصر تمثيلا كاملا، ويعبر عن أماني هذا الشعب وما أجمع عليه.

- تحديد مطالب المصريين في نقطتين: سحق القوة العاتية التي عادت تستبد بهم من جديد، والاعتماد على فرنسا في تحقيق هدفهم الذي يخدم في الوقت نفسه مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها.

تكرار ما تضمنته المذكرة الموجهة إلى القنصل الأول من أن فرنسا تستطيع عن طريق الاستماع إلى هذا الوفد قبل توقيع اتفاق الصلح مع بريطانيا، أن تعوض ما خسرته بالجلاء عن مصر، وأن تحتفظ للأبد

بعودها السياسي في الشرق .

— تأكيد أن فرنسا يمكنها أن تمد نفوذها عبر أواسط أفريقيا بواسطة مصر التي لن تكون إلا موالية لها « وهكذا يتحول تركيز حكم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب مجد للقنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية » !

— مساعدة الوزير أن يستقبل الوفد المصري في باريس ويستمع إلى ممثلين من أجله في رسالته ، وأن يتصل بما يعمل على أن تصل رسالته الأخرى المرفوعة إلى القنصل الأول ، وأن ينزل هذا بالرغم من تمنيه وحده فيطلع عليها .

وهاتان المذكرتان أو الرسالتان ما زالتا محفوظتين بوزارة الخارجية الفرنسية . وقد ورد ذكرهما لأول مرة في مقال كتبه المؤرخ الفرنسي أوريان (Auriant) عن لاسكاريس عام ١٩٢٤ (٣٦) ، ثم ترجمهما بعد بضع سنوات الأستاذ شفيق غربال وألحقهما ببحثه المشار إليه من قبل .

* * *

تلك المذكرات ، سواء ما اتخذ منها طريقه إلى لندن أو ما أرسل إلى باريس تكوّن في مجموعها ما سماه عدد من المؤرخين « مشروع استقلال مصر » ، ونسبوه إلى الجنرال يعقوب رئيس الوفد المصري . ومن ثم رأى بعضهم أن يمجدوا هذا الرجل لأنه سبق عصره بأكثر من قرن محمل في جعبته وهو يغادر مصر « مشروعا خطيرا هو مشروع الاستقلال الأول » .

وبادئ ذي بدء ينبغي أن نحدد صاحب هذا المشروع . فهل هو يعقوب الذي مرض بعد يومين فقط من إبحار السفينة التي غادر مصر

على ظهرها ؟ أم هو لاسكاريس صاحبه ومترجمه الذي نقل فحوى أحاديثه إلى ضباط السفينة ثم صاغها في تلك المذكرات فيما بعد ؟ أم اشترك الرجلان في هذا العمل ؟ ثم ... هل كان هناك حقا « وفد مصري » ضمن جماعة المهاجرين من مصر ؟ وهل هذا الوفد مفوض من قبل الشعب المصري أو من قبل قطاعات معينة فيه ؟ ومن الذي فوضه أو أوفده بالضبط ؟ لنتأمل ما يلي من ملاحظات ، فلعل فيها ما يجيب عن هذه التساؤلات .

١ — إذا كان يعقوب قد عبر عن أمنيته في استقلال مصر أو بعبارة أصح في انسلاخها عن الدولة العثمانية ، فليس هذا بمستبعد على رجل كان له ما رأينا من نزعات وطموحات ومواهب . غير أن المشروع المدون يتضمن بعض الأفكار الفلسفية والحقائق التاريخية والسياسية التي تدل على شيء من خلفية ثقافية نحسب أن يعقوب كان بحكم نشأته وتكوينه أبعد ما يكون عن اكتسابها . وتكفي الإشارة إلى ما ورد بالمذكرات عن حضارة مصر القديمة وصلتها بالحضارة اليونانية ، وعن مشروع سويس ، وعلاقات مصر بأفريقيا ، ومركز بريطانيا بالهند ، ونظم الحكم الفرنسي . الخ ، ليترجح لدينا أن وراء هذا المشروع أفكار لاسكاريس لا يعقوب .

٢ — إن لاسكاريس كما علمنا هو الذي سبق أن تقدم إلى الجنرال منو بمشروع مشابه لاستقلال مصر لم يقتنع به القائد الفرنسي وأشبع صاحبه سخرية .

٣ — إن المشروع بما ردده من أوهام وما قدمه من مقترحات غير واقعية أكثر اتفاقا وشخصية لاسكاريس المسرف في الخيال الذي « يعيش في عالم كامل من أحلام اليقظة » وذلك مثل إنشاء القوة الأجنبية المرتزقة ، واتفاق الدول الأوربية على ضمان استقلال

مصر ، وتقدير شعب مصر للإنجليز وإدراكه لقوتهم ، وأن مصر المستقلة لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا !

٤ – أن يعقوب الذي تعاون مع الفرنسيين في أثناء احتلالهم لمصر إلى أقصى حد كما رأينا ، وأحبهم وفضل أن يترك بلاده ويلحق بهم عند جلائهم عنها ، لا يعقل أن يتحول فجأة إلى ذم هؤلاء الفرنسيين والتنديد بأساليبهم في حكم مصر ، وإلى الإعجاب ببريطانيا وإظهار الولاء لها ، ومناشدتها العمل على تحقيق استقلال بلاده ، ثم محاولة تأليبها على فرنسا . وحتى إذا سلمنا جدلاً بأن يعقوب قد حول ولاءه فعلاً إلى الإنجليز ، فكيف يمكن أن يكون في الوقت نفسه وراء المذكرتين المرسلتين إلى بونابرت وتاليران ؟

٥ – إن التناقض البين ، والذي يثير السخرية ، بين ما كتبه لاسكاريس للإنجليز وما كتبه للفرنسيين يدعو إلى الشك في جدية الموضوع . فلا يقبل العقل أن يتصرف مفاوض سياسي يتحدث عن استقلال شعب هذا التصرف البهلواني الذي يعكس تماماً شخصية لاسكاريس لا شخصية يعقوب الذي لم يكن خياله يوماً ، بالرغم من طموحاته ، في جموح خيال صاحبه . وإنما كان دائماً بسلوكه وتصرفاته رجلاً جريئاً معتداً بنفسه تغلب عليه النزعة العملية ، وإن كانت أحياناً غير متبصرة .

٦ – إن ملازمة لاسكاريس ليعقوب بضعة أشهر قبل جلاء الحملة لا تعني مطلقاً أنه عبّر في مذكراته تعبيراً دقيقاً عن آراء يعقوب ، كما وهم بعض المؤرخين . فلم تكن ظروف مصر في تلك الأيام تنبيء عن تلك التغيرات والأحداث التي وقعت فيما بعد ، حتى يخطر على بال رجل مثل يعقوب أن يتصل بالإنجليز ليعرض عليهم مشروعاً ما .

٧ – إن إرسال إدموندس لمذكرات لاسكاريس إلى رئيسه الأعلى مباشرة لا تدل أبداً على اقتناعه بأنها تتضمن حديث يعقوب الذي أخذه « مأخذ الجد الخطير » كما يقول الدكتور لويس عوض (٣٧) . فلم يكن في وسع القبطان الإنجليزي أن يهمل هذه المذكرات مهما كانت شكوكه في جديتها أو أهميتها ، فهو حسبما رأى من واجبه أن يخطر سلطات بلاده بما حدث على ظهر سفينته في تلك الأيام الحرجة ، وبخاصة أنه لم تكن لديه أية خبرة أو معرفة سياسية بخلفية الأحداث وتطورها . ومع هذا فقد أعرب إدموندس عن تحفظه (أكثر من مرة) إزاء صفة لاسكاريس وحقيقة العلاقة بينه وبين المصريين المهاجرين ، وإزاء مدى ما بيد الوفد المصري من تفويض . كما وصف لاسكاريس بأنه رجل حالم واسع الخيال . وإذا كان إدموندس قد ذكر في رسالته لرئيسه أن الجنرال يعقوب أبلغه بكذا أو أعرب له عن كذا فلم يكن – كما نعلم – ينقل عنه مباشرة ، وإنما كان يردد ما ذكره له المترجم لاسكاريس . وليس من المستبعد أبداً ، بعد ما تبينا من غرابة أطوار لاسكاريس ، أن يكون قد حرّف أحاديث يعقوب لكي تلائم أغراضه . ولو كان إدموندس قد علم بما يدبره لاسكاريس من اتصال مضاد بالمسئولين الفرنسيين لما أعار مذكرته إلى الوزير البريطاني أدنى اهتمام ، ولأصبح أكثر إدراكاً لحقيقة ذلك الفارس الخيالي الذي يبارز طواحين الهواء !

٨ – لا يوجد أي دليل على أن مجموعة المهاجرين من مصر كانت تضم وفداً مفوضاً من الشعب أو من أية طائفة ذات ثقل من طوائفه . فإذا كان علماء الأزهر ومن إليهم مثلاً قد فوضوا من بين المهاجرين من يتحدث باسمهم ، فلم يكن الجبرتي ليغفل تسجيل هذا الحدث ، وهو الذي سجل من أحداث تلك الأيام

ما هو أقل أهمية بكثير . وليس هناك ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من زعماء القبط . فلم تكن لأي منهم اهتمامات سياسية أو تطلعات مثل تطلعات زميلهم الطموح ، وإنما كانوا دائما يؤثرون السلامة والبعد عن المشكلات . ولم يكن مثل هذه الخطوة كذلك لتفوت مؤرخا كالجبرتي أو من أرخوا للحملة من الفرنسيين . لقد اجتمع يعقوب قبل رحيله فعلا بعدد من زملائه كبار الأقباط . ويقول الدكتور لويس عوض معلقا على ذلك مما يوحي بربط هذا الاجتماع بمشروع الاستقلال « ولا نعلم على وجه التحقيق ماذا دار في هذا الاجتماع ، وهل كانت له صبغة سياسية أم أنه كان قاصرا على تسوية المسائل المالية ، ولعله أطلعهم على مشروعه ونواياه[٢٨] » . هذا مع أن الأستاذ شفيق غربال أثبت نقلا عن حمصي وغيره أن هذا الاجتماع كان لتعويض يعقوب في مطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرضه كبار الأقباط للجنرال منو عندما تأزمت أحوال الحملة في أواخر أيامها[٢٩] .

كان يعقوب في حقيقة الأمر هاربا أو مهاجرا من مصر ، ولم يكن له في وطنه قوة أو شعبية يعتمد عليها وتسنده في موضوع خطير كالتفاوض من أجل الاستقلال مع القوتين العظميين في ذلك الوقت . حتى فيلقه القبطي كان قد تشتت بعدما كما رأينا قبل رحيله . وأقصى ما كان يتصور أن يراود يعقوب عندئذ من نيات شخصية هو أن تنسلخ مصر عن دولة الخلافة العثمانية ، وأن تصبح تابعة لدولة كبرى تختص أقلياتها وتذود عنهم سطوة الأغلبية

١٠ كان المهاجرون الذين رحلوا في ذيل الحملة الفرنسية أشتاتا من

الأقباط ونصارى الشام والمرتزقة وبعض المسلمين الذين يخشون مواجهة سلطات الحكم العائد كعبد العال آغا الأنكشارية . ومثل هؤلاء لا يمكن أن يعتبروا بأي مقياس وفدا مصريا يتفاوض من أجل استقلال مصر .

ومن هنا فالحديث عن « وفد مصري » يمثل مختلف طوائف مصر ويتزعمه يعقوب ويتفاوض من أجل استقلال البلاد يغدو مقولة واهية تفتقر إلى السند والبرهان .

نهاية الأحداث

كيف انتهت أحداث هذه الحقبة المثيرة ؟ إن هذا التساؤل الذى يفرض نفسه الآن يتطلب أن نجيب عن شقين : ما الذى أدت إليه هذه الاتصالات — أو بالأحرى محاولات الاتصال — مع حكومتى القوتين العظميين فى ذلك الزمان ، بريطانيا وفرنسا ؟ ثم . . ماذا كان مصير أصحابها ، ومعهم أولئك الذين خرجوا من مصر مهاجرين إلى غيرها ؟

● إن مذكرة لاسكاريس المرفوعة إلى الحكومة البريطانية ، بالرغم مما توافر لها من مسوغات جغرافية ، لم يكن لها أى أثر أو صدى على أى مستوى . فقد أهمل أمرها تماما ، واكتفى مكتب وزير البحرية البريطانية بتحويلها للإيداع فى محفوظات وزارة الخارجية . هذا بالرغم من أن بريطانيا لم تكف ، بعد أن نجحت مع العثمانيين فى إخراج الفرنسيين من مصر ، عن السعى لمحاولة احتلالها أو إقرار نفوذها فيها عن طريق الأسطول الإنجليزى فى المياه المصرية وبقيت بعض القوات الإنجليزية فى مصر حتى سنة ١٨٠٣ . وفى الوقت نفسه بدأت بريطانيا جهودها الدبلوماسية مع الباب العالى لمنع وقوع مصر بالذات فى يد

فرنسا أو غيرها . ولجأت بريطانيا كذلك إلى استمالة عدد من المماليك الذين عادوا من سوريا مع القوات العثمانية إلى جانبها ، فتكون من هؤلاء — لا من الأقباط أو غيرهم من الأقليات — حزب موال للإنجليز بزعامة محمد بك الألفى . وقد سافر الألفى مع القوات الإنجليزية المنسحبة ، وبقى فى لندن مدة اتفق خلالها مع المسئولين البريطانيين على أن يمكنوه من تولى السلطة فى مصر مقابل منحهم بعض الامتيازات ، مثل حماية السواحل المصرية . غير أن حزب الألفى فشل فى تحقيق هذا المخطط ، واستقر الأمر فى مصر لمحمد على . وأخيرا وجهت بريطانيا حملتها المعروفة بقيادة فريزر لاحتلال مصر عام ١٨٠٧ ، ولكنها ردت على أعقابها . وظلت بريطانيا — كما نعلم — طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر تعمل على احتلال مصر وتقاوم النفوذ الفرنسى فيها ، حتى نجحت فى احتلالها عام ١٨٨٢ .

وفى فرنسا لم يكن حظ مذكرتى لاسكاريس بأفضل من حظ مذكرته المطولة إلى الحكومة البريطانية . فلم يبد بونابرت ولا تاليران أدنى اهتمام بالرسالتين ولم يأخذا ما جاء فيهما مأخذ الجد ، وتم تحويلهما بدورهما إلى محفوظات وزارة الخارجية . وهذا أيضا بالرغم من جهود فرنسا المضادة لجهود بريطانيا فى محاولة الاستئثار بشىء من النفوذ فى مصر . فقد كان لفرنسا بدورها حزب من المماليك بزعامة عثمان بك البرديسى ، ولكن حظه لم يكن بأفضل من حظ حزب الألفى فى مواجهة نجم محمد على الصاعد . ومن خلال العلاقات مع حكومة محمد على نفسه حاولت فرنسا عن طريق تصدير الخبرة والثقافة لا الاعتماد على الأقليات ، أن تتسلل إلى مختلف المجالات فى دولة مصر الحديثة التى أقامها ذلك العاهل الكبير . ثم تدعمت محاولاتها فى عهد خلفائه حتى نجحت سياستها الكبرى فى احتلال البلاد أيام توفيق .

وعلى أية حال فقد اتفقت الدولتان فى محادثات الصلح على إعادة

مصر لحظيرة الدولة العثمانية . وتم إدماج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية التى وقعت فى أميان (Amiens) عام ١٨٠٢ . وخلال السنوات التى أعقبت انسحاب الحملة الفرنسية لم يبدر فى خلد أى من الفرنسيين المتنافسين على مصر خاطر يتصل بتطوير ما فى بنية الحكم يحقق لونا من الاستقلال أو الرفاهية للشعب المصرى ، أو يرفع عنه شيئا من مظالم المماليك أو استبداد الحكم العثمانى ، كما جاء فى مشروع الاستقلال المزعوم .

● أما المهاجرون الذين أقلتهم الفرقاطة پالاس إلى الشواطئ الفرنسية فقد كان مصيرهم التشتت والضياع . لقد أهملت الحكومة الفرنسية أمرهم تماما ، ولم تستقبل منهم أحدا ، ولم يعرهم المسئولون أى اهتمام . وعاد بعض منهم لوطنهم بعد قليل ، وظل الباقون هناك نهبا للفقر والفاقة ، بل إن بعضهم — كما تثبت وثائق وزارة الخارجية فى باريس — لجأ إلى السلطات الفرنسية مستجديا فمنحتهم الحكومة الفرنسية معاشا ، وانتهى أمرهم بأن ذابوا فى المجتمع الفرنسى [40] . ولم يترك أحد منهم فى التاريخ ذكرا إلا الشاب القبطى « إليوس بقطر » ، الذى كان فى الثامنة عشرة عندما انضم إلى قافلة الراحلين عن مصر ، فقد تعلم إليوس الفرنسية وأجادها واشتغل بالترجمة والتدريس فى باريس نحو عشرين عاما تمكن خلالها من إعداد أول قاموس فرنسى عربى تم طبعه بعد وفاته [41] .

وأما فارسنا النبيل الرودسى كيشوق ، النبيل البيدمونتى [42] الحالم لاسكاريس ، فقد ظل — كما قال الأستاذ شفيق غربال — « يضرب فى بلاد الشرق سنين ، تجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع ، أحيانا لإصلاح الزراعة فى بلاد القوقاز ولبنان ، وأحيانا لتدبير مستقبل الجبل السياسى أو لتسوية مشكلة الوهابية . وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتياب من جانب الرجال الرسميين ، وحظه الحزن والفاقة » [43] .

ورسى المطاف بالفارس الحالم إلى مصر ، حيث أخذ يكتسب بتعليم

اللغة العربية للأمراء ، وبخاصة إسماعيل بن محمد على (الذى فتح السودان وهناك قتله نمر ملك شندى) . ثم مات لاسكاريس فى القاهرة عام ١٨١٧ فى ظروف مريبة . وقيل إنه مات مسموما على يد أحد رجال محمد على لأنه أقحم نفسه أكثر من اللازم فى المسائل السياسية وهكذا كانت نهاية الرجل الخيالى المغامر ، الذى بدأ وانتهى كما وصف نفسه « صاحب مشروعات » .

وبعد...

هذه قصة المعلم يعقوب، المصري القبطي الذي عاش حياة امتدت ستة وخمسين عاما، ذاق فيها نعمة الغنى والثراء، وتمتع بالجاه والنفوذ، وصار من زعماء طائفته المرموقين. ولكن سيرته في الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته وحدها كانت حديث الناس في أثنائها وبعد انتهائها. لقد كانت تلك الفترة الزمنية على قصرها حافلة بالأحداث التي تركت آثارا عميقة في حياة البلاد. ومنذ بدايتها اختار يعقوب لنفسه نهجا واضحا لم يحد عنه، وربط فيه نفسه بالحملة الفرنسية ومصالحها ومصيرها، وتمادى في هذا إلى أبعد حد، حتى أنه وجد من مصلحته أن يرحل مع قوات الحملة بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومنيت مشروعاتهم في استعمار مصر بالفشل.

وقد تناولت هذه الدراسة بكل موضوعية سيرة يعقوب منذ نشأته، وتعرضت لمكونات شخصيته، ثم ركزت على تلك الحقبة الحرجة رغم قصرها، فحللت القوى في سلوك يعقوب ومواقفه في إطار التغيرات التي لحقت وجه الحياة في مصر إبانها، وفي ظل الظروف التي صاحبت أحداث الحملة وتفاعلت معها. واعتمدت

في هذا كله على عدد وفير من المراجع والوثائق.

وليس من العسير في ضوء ما تقدم أن نحاول الإجابة عن السؤال الذي كان محور هذه الدراسة، وهو: هل يعقوب خائن لقومه وبلاده، باع نفسه للمحتل الغاصب وتفانى في خدمة مصالحه؟ أو هو - على النقيض - بطل وطني وضع أول مشروع لاستقلال مصر، وسبق به الحركة الوطنية المصرية بعشرات السنين؟

ينبغي أن نقدر أولا أنه لم يكن قد تبلور في مصر في ذلك الوقت شعور وطني خالص. لقد كان هناك إحساس عميق بالانتماء إلى هذه الأرض والاعتزاز بتراثها الحضاري المشترك من لغة وتقاليد وعادات، ولكن على أساس أن مصر جزء من «دار الإسلام» يتعايش فوق أرضها شعب غالبيته من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حفظت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم، دون ما تعصب أو تطرف. ومن هنا فقد قاوم المصريون الحكم الفرنسي وثاروا عليه في القاهرة ومختلف أقاليم الوجه البحري والصعيد، ولكنهم كانوا بوجه عام متقبلين للحكم العثماني المملوكي بالرغم من مساوئه. وكانوا أحيانا ما يقاومون بالغضب والاحتجاج والسخط طغيان وال أو ظلم مملوك، ولكنهم لم يقوموا بأية ثورات شعبية «وطنية» على شكل السيادة أو نظام الحكم.

ولم يشهد التاريخ قبله ما يقرب من ثلاثة قرون قبل مجيء الحملة إلا محاولتين فرديتين للانتقاض على السيادة العثمانية أو الطغيان المملوكي أو هما معا، كانت أولاهما ثورة همام بن يوسف زعيم قبائل الهوارة بالصعيد، الذي استقل بالمنطقة الممتدة من المنيا حتى حدود مصر الجنوبية حوالي عام ١٧٦٥، ثم كسر علي بك الكبير شوكته وقضى على حكمه بعد أربع سنوات. وكانت المحاولة الثانية على يد علي بك الكبير نفسه الذي كان شيخا للبلد، أي زعيما لمماليك مصر، وتمرد على سلطة الباب العالي واستقل بمصر عام ١٧٦٦. ولكن ما لبثت هذه

محاولة بمحورها أن أجهضت بعد ما لا يزيد على ستة أعوام . وقد أدرك بونابرت ذلك تماما منذ بداية حملته ، فحاول من خلال منشوراته إلى المصريين أن يضرب على وتر المشاعر الدينية فيؤكد حرصه على احترام الإسلام وتوقير علمائه والاعتراف بسيادة السلطان العثماني « خليفة المسلمين » ولكن القائد المحتل لم ينجح في هذه المحاولة التي لم تخدع أحدا ، ولم تجد بيئة صالحة تؤتي فيها ثمارها . وكل دارس لتاريخ مصر الحديث يعلم أن الشعور القومي المصري ، أي الشعور بالانتماء الوثيق إلى مصر « الوطن » ذي المقومات المعروفة المحددة ، بكل أبعاد هذا الانتماء ، ظل ممتزجا امتزاجا قويا بالشعور الديني ، أي بالانتماء إلى دار الإسلام الواسعة ، بكل ما يفرضه هذا الانتماء من التزامات ، حتى ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على أن يبدأ تبلور الشعور « الوطني » بالمعنى السياسي الحديث بعد عهد الحملة بعشرات السنين .

وفي ظل تلك الظروف ، كيف نقوم مسلك المعلم يعقوب ؟ إنه لم يكن مجرد خائن لقومه وبلاده ، فوصفه بذلك هو من قبيل إطلاق الأحكام العامة التي تفتقر إلى التحديد . والأدق أن يوصف بأنه منشق على نظام الحكم القائم وبينه رافض له . ولكن ما أساء إلى موقفه أبعد الإساءة أن هذا الانشقاق أو الرفض اتخذ من البداية بعدا طائفيا مفضوحا ، فضلا عما امتزج به من طموحات شخصية .

لقد رفض يعقوب إذ واتته الفرصة أن يستمر في الخضوع لنظام الحكم الإسلامي ، الذي كان في رأيه يمثل طغيان الأغلبية على الأقلية ، وفي ظله تضطهد طائفته القبطية وتمتهن حقوقها . وانشق يعقوب على أمته فصانع كما رأينا الحاكم الفرنسي منذ البداية وذهب في مصانعته إلى أبعد مدى . وكان له من رفضه وانشقاقه موقف لم يحد عنه ، بل راح ينتهز كل فرصة لإثباته وتأكيده ، وهو موقف اتسم بنظرة طائفية متطرفة كانت لها مظاهرها التعصبية الحادة .

أملى هذا الموقف على يعقوب أن يحارب في صف الفرنسيين ضد المماليك الذين عمل من قبل في خدمتهم ، وأن يتحمس لتكوين الفيلق القبطي ويشترك به في عدة عمليات مع الفرنسيين ضد الوجود العثماني في أواخر عهد الحملة . ولقد رأينا كذلك كيف كانت تصرفاته ، من مركز القوة ، ضد مواطنيه المسلمين .

لقد ساند يعقوب بكل ثقله وإمكاناته تجربة الفرنسيين وعاونهم في إحكام قبضتهم على مصر ، واحتمى بقوتهم ، وحسب أن حكمهم بداية لمرحلة جديدة سوف تتغير فيها موازين القوى ويصبح للأقلية القبطية تحت الحماية الفرنسية مكانة مرموقة تتناسب وما قدمه هو وقومه لسلطات الحملة من خدمات . ولقد رأينا في سيرة يعقوب خلال سنوات الحملة الثلاث كيف امتزج لديه الطموح الذاتي والمطامع الشخصية بتلك النظرة المستقبلية غير المتبصرة . وعندما بات مصير الحملة في مصر واضحا آثر يعقوب الانسحاب من الساحة ، ولم يلبث أن وافاه أجله .

أما أحاديث يعقوب على ظهر الفرقاطة « بلاس » مع قبطانها الإنجليزي ، فلا تعدو أن تكون من قبيل الأحاديث العفوية العابرة . وقد أوضحت هذه الدراسة دور لاسكاريس في نقلها وصياغتها حتى تحولت إلى مذكرات كان مصيرها الحفظ في أضابير وزارتي الخارجية في لندن وباريس .

ومن التجاوز الشديد ، بل ومن الشطط اللاموضوعي أن ننظر إلى هذه المذكرات أو إلى شيء منها كما فعل بعض المؤرخين ، باعتبارها [illegible] مشروع لاستقلال مصر ، وأن ننسب هذا المشروع إلى الجنرال يعقوب ، وأن ينطلق البعض فيرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين . إن يعقوب لو كان قد فكر بالفعل في مشروع لاستقلال البلاد لقدمه إلى قواد الحملة في تلك الفترة الحافلة التي سبقت جلاء

القوات الفرنسية . ولاشك أن صلة يعقوب بهؤلاء القواد وما توافر لديه عندئذ من إمكانات كانت تسمح له بذلك في الوقت المناسب . بل إنه كان يستطيع أن يقدم ذلك « المشروع » إلى الجنرال بليار أو غيره عن ظهر السفينة بدلا من الثرثرة فيه مع القبطان الإنجليزي . ولعل التناقض الواضح بين فكرة الاتصال بالمسئولين الإنجليز لتحقيق ما سمى بمشروع الاستقلال وبين الاتصال في الوقت نفسه بالمسئولين الفرنسيين ، ليؤكد ما سبق أن خلصت إليه الدراسة من نسبة ما حدث إلى لاسكاريس . الرجل الخيالي الحالم الذي عاش ومات « صاحب مشروعات » .

ثم رفض الدكتور لويس عوض فكرة أن يكون لاسكاريس وراء نسب المذكرتين ونسبهما إلى يعقوب الذي كان على رأس مجموعة من « المثقفين المصريين » عقلا « وقلبا مصريا » . وذهب الدكتور لويس عوض في الإشادة بيعقوب ومشروعه والتحمس له مذهبا انفرد به دون سائر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين ، إذ وصفه بأنه يمثل مدرسة في الوطنية والكفاح القومي تعادل — في تلك الأيام — مدرسة عمر مكرم ومن إليه ، وإن اختلفت سبيل كل منهما واختلف مذهبه في الفكر والعمل . وقال إن يعقوب وفيلقه القبطي نموذج لما تم في عهد بونابرت ، وقارن بينه وبين من تطوعوا في صفوف الجيش الفرنسي من الأوربيين إيمانا منهم بمبادئ الثورة الفرنسية . ثم وصف مشروع استقلال مصر الذي وضعه يعقوب والإخوان الاستقلاليون ، بأنه موضوعي ووطني ، وأنه يتفق مع مصالح البلاد الأساسية . وختم الدكتور لويس عوض مناقشته الطويلة بأن رفع يعقوب إلى مصاف أبطال مصر وقادتها العظام ، فاعتبره حلقة في سلسلة الزعماء الذين شاركوا بجهدهم في الكفاح من أجل استقلال البلاد من علي بك الكبير إلى جمال عبد الناصر . » ! ! (٤٥)

والعجيب أن الدكتور لويس عوض تعمد في حديثه المطول ودفاعه

الحار عن يعقوب ومشروعه أن يغفل الإشارة إلى مذكرتي لاسكاريس المرفوعتين إلى بونابرت وتاليران واللتين وقعهما نمر أفندي ، مع أنه رجع إلى بحث الأستاذ شفيق غربال الذي أورد نص هاتين المذكرتين وناقشه في أكثر من موضوع ، وليس هذا من الأمانة العلمية في شيء . ولو كانت مناقشة الدكتور قد امتدت إلى هاتين المذكرتين لوفر على نفسه وعلى قرائه الكثير مما قدمه تمجيدا ليعقوب ومشروعه ، فمجرد وجود مشروعين متناقضين بهذه الصورة يكفي — كما أوضحنا — لإلقاء الضوء على أهم أحداث تلك « المسرحية البحرية » التي أسلفنا عرض مشاهدها ، ولتقويم أدق لكل من يعقوب ولاسكاريس وأفكارهما عن مصر ومستقبلها .

والأمر الذي لا جدال فيه أنه إذا كان المعلم يعقوب قد خرج ، بعد الحملة الفرنسية فحسب ، إلى سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، فقد كان هذا الخروج من خلال نظرة ضيقة أملتها عاطفة طائفية لا وطنية فيها ولا بطولة ، ودافعها طموح شخصي يستهدف تحقيق مجد ذاته . والتاريخ يسجل لنا على أية حال أن يعقوب لم ينفرد وحده في تلك الأيام بمثل هذا الخروج الذي يحدوه طموح شخصي والذي لا وطنية فيه ولا بطولة ، بل نحا هذا المنحى غيره من شخصيات مصر البارزة ، وإن خلا نزوعه من العاطفة الدينية .

المملوك العميل

لقد رأينا كيف أن مراد بك ، الذى فر إلى الصعيد أمام قوات جيش الحملة بعد أن عجز هو وزميله إبراهيم بك عن مقاومة الغزو الفرنسي على مشارف القاهرة ، ظل يناوئ ، ويناوش قوات ديسيه المتوغلة في ربوع الصعيد إلى أن يوقع اتفاقية « سلام وتحالف » مع الجنرال كليبر وقد نصت هذه الاتفاقية بأن يحكم مراد بك الصعيد الأقصى باسم الجمهورية الفرنسية في مقابل التزامات معينة (شكل ٧)

إن مراد هذا ، الذى أطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الجيزة ، قد تعاون مع المحتل الفرنسي بعد هذه الاتفاقية إلى أبعد حدود التعاون ، وكانت صلته بسلطات الحملة في القاهرة صلة التابع المخلص الأمين ، ولم يكن أقل من يعقوب ولاء للفرنسيين وعملا على حماية مصالحهم ، ومن مظاهر ذلك ما يثير أمرّ مشاعر الأسى والأسف ، فعقب اغتيال الجنرال كليبر مثلا بعث مراد بك برسالة تعزية إلى خلفه الجديد الجنرال منو (وهى من الوثائق التى لم يسبق نشرها) ، وقد أعرب مراد في هذه الرسالة عن أسفه العميق على ما حدث واستنكاره له ، ووصف مرتكبه بأنه « خبيث وقاتل

شكل (٧) مراد بك



حرمانه منها ... » [٤٧]

ويؤكد هذا الموقف من مراد مؤرخو الحملة الفرنسيين وغيرهم . فيقول البارون أرنوف (Arnouf) مثلا الذى أرخ للجنرال كليبر ، إن مراد طمع فى حكم مصر تحت السيادة الفرنسية خوفه من أن تؤدى عودة السيادة العثمانية إلى القضاء على قوة المماليك ، وإنه كان يسمى نفسه فى الصعيد « السلطان الفرنسى » . ويقول ريجو إن الاتفاقية التى وقعها مراد مع كليبر تدل على بعد نظر سياسى ، لأنه فى الوقت الذى يغادر فيه الفرنسيون مصر — وكان ذلك متوقعا — سيكون من السهل عليهم أن يخلفوا فيها مراد بك ملكا على البلاد كما كان يأمل ، وبذلك يمكن الحيلولة دون وقوعها تحت حكم الإنجليز وقد ردد مراد نفسه هذا المعنى مرة أخرى فى رسالة بعث بها إلى الجنرال دونزلو (Donzelot) — أحد كبار قواد الحملة — بعد عقد اتفاقيته بشهرين [٤٨]

وفى تلك الأيام المضطربة التى حفلت بكثير من الأحداث والتى عانى فيها المصريون من مختلف ألوان الشدائد والمحن ، والتى بدأت بعقد اتفاقية العريش وانتهت بانتصار كبير فى موقعة عين شمس على القوات العثمانية والإنجليزية المشتركة ، كان مراد بك كما كان المعلم يعقوب من أكبر الدعامات التى استندت إليها ظهر الحملة الفرنسية فى مواجهتها للزحف العسكرى من الخارج والثورات الشعبية من الداخل . لقد كتب « جالان » (Galland) و « برتييه » (Berthier) وهما من رجال الحملة أن مراد بك قدم للفرنسيين فى أثناء ثورة القاهرة الثانية (بعد نقض الصلح مع العثمانيين) المؤن والذخائر وسلمهم العثمانيين اللاجئين له ، وأرسل لهم المراكب المحملة بالأحطاب والمواد اللازمة لإحداث الحرائق اللازمة لإخماد الثورة التى كانت قد اشتعلت كذلك فى مناطق أخرى غير القاهرة . وكان تفصيل هذه المؤن والمهمات والمواد

التي زود بها مراد الفرنسيين أن استطاعوا فعلا إخضاع الثورة بعد أن أحرقوا حي بولاق وغيره [٤٩]. ويقول الجبرتي في هذا الصدد أيضا إن مراد بك « عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا (العثماني) من أغنام وخيول وميرة وكان شيئا كثيرا فتسلم الجميع منه وعدى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجها إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر (أي القاهرة) [٥٠] ». هذا في الوقت الذي كان يعقوب — كما رأينا — يساند فيه الفرنسيين عسكريا بقتاله لمن تسلل إلى القاهرة من المماليك والعثمانيين، ويساعدهم كذلك في تحصيل ما فرضوه على المصريين من مغارم.

وبينما سخر قادة الحملة يعقوب ربيبهم في الجيش الفرنسي، فإنهم كانوا يعتبرون مراد مواطنا فرنسيا. وقد حدث في أول عهد منو، قبل بدء العمليات الحربية بين الفرنسيين والقوات المشتركة، أن تدخل مراد بك محاولا التوسط بين العثمانيين وقيادة الحملة لإجراء مفاوضات جديدة، وبعث بنائبه عثمان البرديسي إلى القاهرة ومعه رسالة بهذا المعنى. ولكن منو رفض هذه المحاولات وأدان بشدة اتصال مراد بالمعسكر العثماني، وقال إن مراد بك هو أحد مواطني الجمهورية (un des membres de la Republique) ويجب عليه أن يهتم بشئونه وألا يتجاوز حدوده [٥١].

وكما عكس الجبرتي شعور المصريين تجاه شطط يعقوب وتطرفه في التعاون مع الفرنسيين بكثير من الامتعاض والسخط، فكذلك فعل في مناسبة وفاة مراد (خلال عهد منو) فأفاض في ذكر مثالبه، وذكر بكثير من الاستنكار ما قدمه للفرنسيين من خدمات، ثم قال « إنه كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتجور » [٥٢].

ولقد نظر الفرنسيون إلى محاولات البعض التقرب إليهم وبسط اليد

للتعاون معهم أو محاولتهم هم لاحتواء هذا « البعض » ومد جسور الصداقة إليهم، نظروا إلى كل ذلك نظرة واقعية مكيافيلية لها غاية محددة واحدة، هي مصلحة الجمهورية الفرنسية، مهما اختلفت الوسائل وتنوعت السبل لتحقيق هذه الغاية. وكانت هذه النظرة في الوقت ذاته واعية متبصرة. إنهم رموا شباكهم على مراد وأفلحوا في اصطياده، ورحبوا بتعاونه وبقائه في خدمة مصالحهم، ولم يحسوا في تطلعه إلى فصل مصر عن الدولة العثمانية وطموحه إلى التربع على عرشها في ظل حمايتهم أمرا غير عادي أو لا يدخل في دائرة الممكن. فقد كانوا يعلمون جيدا أن السيادة العثمانية على مصر هي في حقيقتها اسمية روحية، وأن الحكم الفعلي للمماليك الذين قال عنهم بونابرت قائد الحملة في منشوره الأول إلى المصريين إنه حضر للقضاء عليهم. وكانوا يعلمون كذلك أنه ليس غريبا أن يتطلع رجل كمراد بك إلى حكم مصر منفردا، فقد كان عند قدوم الحملة يتقاسم وزميله إبراهيم بك منصب مشيخة البلد، أي زعامة طائفة المماليك التي كانت تمثل رأس السلطة التنفيذية في البلاد. وكانوا يعلمون أيضا أن المصريين اعتادوا على حكم المماليك مع ما يقترن به من مظالم ومفاسد، وليس من العسير أن يقبلوا ما يصنعه بعد اضطرار الفرنسيين إلى الجلاء بقواتهم عن البلاد. ومن هنا أبدوا في اتفاقهم مع مراد فكرة تنصيبه تحت حمايتهم سلطانا أو ملكا على مصر بعد جلائهم، واعتبروه منذئذ مواطنا فرنسيا.

ويذكر الجبرتي اهتمام الفرنسيين غير العادي بخبر وفاة مراد المفاجئة بالطاعون قبل توقيع بليار لاتفاقية الجلاء عن القاهرة بنحو شهرين. فقد أرسلوا « جوابات إلى الأمراء المرادية يعزونهم في أستاذهم (أي زعيمهم) »، بل وتدخلوا كذلك في تعيين من يخلفه في زعامة مماليكه، فبعثوا « تقريرا إلى عثمان بيك الجوخدار بأن يكون أميرا ورئيسا على خشداشينه (أي زملائه) وعوضا عن مراد بك » [٥٣]. ونحن نعلم أن زعامة مماليك مراد الموالين لفرنسا آلت فيما بعد إلى عثمان البرديسي،

وإن لاحتمير كذلك استمالوا لتأييدهم فريقا آخر من المماليك بزعامة محمد الألفي ، هذا بينما كان محمد علي يصارع مختلف القوى متلمسا وسيلة للانفراد بحكم مصر من خلال الشرعية العثمانية .

أما علاقة الفرنسيين بالأقباط وزعمائهم فكانت أمرا مختلفا تماما فقد لجأت إليهم سلطات الحملة لمساعدتها في تدبير الشئون المالية للبلاد بحكم ما يملكونه من خبرة طويلة في هذا الصدد ، وما يتوافر لديهم من بيانات ومعلومات تتصل بالدخل العام ومساحة الأراضي الزراعية ومحصولات ما يقرر عليها من ضرائب وما إلى ذلك . وزاد اعتمادهم على العنصر القبطي في جباية الأموال وحسابها بعد أن تبين تقصير موظفي الإدارة الفرنسية [illegible] . ومع هذا فإن أولئك الجباة والصيارفة لم يكونوا عند حسن ظن الفرنسيين بهم . ويجمع مؤرخو الحملة ، نقلا عن وثائقها ، على أن غالبيتهم نهبوا أموال البلاد ، واشتطوا في عسفهم [illegible] في استحلال أموال الناس [illegible] بكرامة دافعي الضرائب من الفلاحين وغيرهم . وتحفل كتابات هؤلاء المؤرخين بكثير من الأمثلة الشاهدة على ذلك . ولقد بذلت حكومة الحملة وبخاصة في عهد منو جهودا كبيرة محاولة تغيير هذه الأوضاع والتخلص من هيمنة أولئك الجباة ، بإعادة التنظيم الإداري ومراجعة تصرفات الموظفين والدقة في فحص الحسابات ... الخ .

وقد اتخذ عبد الله منو في هذا الصدد موقفين حاسمين قلبا موازين العلاقات بين سلطات الحملة والأقباط :

١ - [illegible] إستيف (Estève) مدير الشئون المالية للحملة [illegible] اكتشف اختلاسات جسيمة من الأموال العامة أمر بالقبض على [illegible] جرجس ومَلَطي وأمرهما برد المبالغ التي اختلسها الجباة الذين يعملون تحت إشرافهما . أما يعقوب [illegible] فقد تركزت جهوده في التعاون مع الفرنسيين بعد كثير في

الجانب العسكري ، فانصرف إلى حد كبير عن النشاط المالي وما جرته عليه جباية المغرم والفرد من [illegible] من احتكاكات ومصادمات مع المواطنين . وتعكس عريضة تظلم من ملطي وأنطون إلى القائد العام (لم يسبق نشرها) أثر ما اتخذه منو ضدهما من إجراءات . إنهما يشكوان ما وقع بهما قائلين « .. وقد زاد علينا الحال حتى ظهرنا من جملت (كذا) العصاة على أوامركم وقد قاصصتمونا لذلك . فاقتضى الحال أن نستغيث بكرسيكم تعينوا بأمركم أناسا من أهل الفطنة خاليين الغرض كي تروهم أنتم يقعدوا في مابيت (كذا) ويبصروا في حال حسابنا .. » ثم يستشهدان بزميلهما يعقوب ، ويشيران إلى أنه لم يستطع الشفاعة لهما أو الوساطة من أجلهما « ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادمكم الخاص حضرة الجنرال (كذا) يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع محتار كيف يتصرف في مثل هذه الدعوة .. » (شكل ٩) .

٢ - وعندما كون منو ديوانا جديدا في أكتوبر ١٨٠٠ عدل عن تعيين ممثلي الأقليات في هذا الديوان كما كان عليه الوضع منذ أنشأه بونابرت المشاورين . وقال في المادة الثالثة من المرسوم الخاص بإنشاء هذا الديوان « فلابد من إقامة ديوان بمصر مؤتلف من جماعة العلماء أو من أناس آخرين مسلمين الأوفر اتصافا بالفضل والمعرفة والمنزهين عن محبة المال ... » . وقال الجبرتي عن هذا الديوان إنه أنشئ « على نسق الأول من تسعة أنفار متعممين لا غير وليس فيهم قبطي ولا وجاقلي ولا شامي ولا غير ذلك » وكان الجبرتي نفسه أحد الأعضاء التسعة في هذا الديوان »[٥١] .

ويؤدي هذا كله أنه كان من المستبعد تماما أن يفكر الفرنسيون وهم يخططون لمستقبل علاقاتهم بمصر في الاعتماد على زعيم من زعماء الأقلية

المطيعة ليولى السلطة فى مصالحهم أو تحت حمايتهم ، بعد أن يضطروا إلى إجلاء قواتهم عن البلاد ، مهما كان ولاء هذا الزعيم لهم ومهما بالغ فى خدمة مصالحهم .

لقد أفلح الفرنسيون — كما رأينا — فى اصطناع بعض المماليك ، ولكن التطورات التاريخية قضت على قوة المماليك العسكرية وكشفت أخطاءها وضعفها . وحاول الفرنسيون كذلك أن يصطنعوا — أو يستميلوا — علماء الأزهر بوصفهم قادة الشعب وموضع احترامه وإجلاله ، وتقربوا إليهم بشتى وسائل الإغراء والتهديد ، حتى أرغموهم أحيانا على أن يوجهوا منشورات إلى المصريين أو يبعثوا برسائل إلى قادة الحملة ، تجعلهم يبدون فى صورة المؤيدين للحكم الفرنسي والموالين لمبادئ الثورة الفرنسية العظمى ! ولكن هذه المحاولات كان مآلها المتوقع هو الفشل الذريع ، ولم تستطع أن تهز من مكانة هؤلاء العلماء أو تغير من تقدير الناس لهم وإيمانهم بمبادئهم . أما اصطناع يعقوب أو من إليه من زعماء الأقلية فكان أمرا مرحليا وبصورة محدودة فى أثناء حكمهم للبلاد . ولكن اصطناعه ليمهد لهم مخططا آجلا أو ليعينهم على تحقيق غاياتهم ، إنما هو أمر لم يكن ليخطر لهم على بال ، لأنه كما قال أحد مؤرخيهم « أشبه بالمراهنة على الحصان الخاسر » .

* * *

وانطوت صفحة من تاريخ مصر لم تزد مساحتها الزمنية على ثلاثة أعوام ، ولكنها حفلت بالكثير من الأحداث والمتغيرات . وانقشع عن البلاد ظلام الاستعمار الفرنسي ، وأفاقت مصر من صدمتها وما حملته من عبر ودروس لتستأنف مسيرتها عبر حقب التاريخ ، ولتصبح بعد مثل أمة ناهضة موحدة تبني دولة حديثة ، وتتبلور على مر الأيام مشاعرها الوطنية الخالصة ، وتتأكد قوميتها الذاتية وإمكاناتها الطبيعية ،

ولتشق طريقها بمسلميها وأقباطها نحو التقدم والنماء ، وتصارع كما أبيّا كل ما رزئت به من محن ، وتصمد فى بسالة لما نكبت به من احتلال آخر جثم على صدرها عشرات السنين ، ولتضرب بشعبها العظيم وأبطالها الخالدين أروع الأمثلة فى الوطنية والكفاح ، ولتبهر العالم بثورة ١٩١٩ التى اعتنق فيها الهلال والصليب فى وحدة لم يسبق لها أن تحقق لها نظير ، ولتفخر بأبنائها وما يقدمون لها كل يوم من عطاء وفداء

هوامش

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، جـ ٣ ص ٤٦

(٢) المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٤٧

(٣) يسرى نادرس ، مشاهير الأقباط ، جـ ٢ ص ٢٤ ـ ٢٥ انظر كذلك يعقوب نخلة رفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١

(٤) Georges Rigault, Le Général Abdallah Menou et la Dernière Phase de l'Expédition d'Egypte, pp. 113-114

(٥) نقلا عن La Jonquière, C.De, l'Expédition d'Egypte, III, p. 510

(٦) الجبرتي ، جـ ٣ ، ص ١٠١

(٧) رؤوف حبيب ، يعقوب حنا ، صور من تاريخ القبط ، ص ٨ ـ ٣ .

(٨) الجبرتي ، جـ ٣ ، ص ١١٣

(٩) المرجع السابق ص ١١٤

(١٠) المرجع نفسه ص ١١٨ ـ ١١٩

(١١) انظر شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ص ٢٠

(١٢) Gaston Homsy, le général Jacob et l'Expédition de Bonaparte و جاستون حمصي فرنسي من أصل سوري مصري ويتصل نسبه بيعقوب نفسه

(١٣) شفيق غربال ، مرجع سابق ص ٢

(١٤) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

(١٥) Rigault, op. cit., p. 4

(١٦) الجبرتي ، جـ ٣ ، ص ١٢٦

(١٧) انظر محمد فؤاد شكري ، الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، ص ٣٤٧ ، ٣٥٢

(١٨) شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(١٩) الجبرتي ، جـ ٣ ، ص ١٢٦

(٢٠) شفيق غربال مرجع سابق ص ٢٤

(٢١) الجبرتي،جـ ٣ ص ١٤٢

(٢٢) الجبرتي،جـ ٣ ص ١٨٨ .

(٢٣) الجبرتي ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥

(٢٤) Gaston Homsy, op. cit. p.115.

(٢٥) جاك تاجر ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ ويلاحظ أن هذه الترجمة مخطوط مودع بدار الكتب المصرية ، بعنوان « الأمير في علم التاريخ والسياسة والتدبير »

(٢٦) Mémoires du Comte Belliard, t. III, p. 313.

(٢٧) الجبرتي ، جـ ٣ ، ص ١٩٦

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٠٠

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٣١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧

(٣٢) Rousseau, M.F., Kléber et Menou en Egypte. p. 333.

(٣٣) Kléber شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٣٦

(٣٤) انظر : George Douin, l'Egypte Independante. pp. 1-3.

(٣٥) G. Homsy, op. cit., p. 41 وانظر كذلك شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٤٨

(٣٦) انظر Mercure de France, 15 Juin, 1920.

(٣٧) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، جـ ١ ، ص ٢٠٦

(٣٨) لويس عوض ، المرجع السابق ، ص ١٨٨

(٣٩) شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٣٨

(٤٠) توجد بعض عرائض الاستجداء من المهاجرين المصريين في وثائق وزارة الحربية الفرنسية ويبدو أن الإعانات التي أجرتها الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين استمرت ... تورنيه ... مثل ... « جبرائيل إبراهيم » ، وهو حفيد لأخت يعقوب ، ... معاشه حتى وفاته في عام ١٨٧٨ (انظر G. Homsy, op.cit., p. 67)

(٤١) يبدو أن هذا الشاب كان الوحيد من شباب الأقباط الذين اصطحبهم الفرنسيون ليتعلموا الفرنسية ويعملوا في جهاز الحكم الجديد ، فلم تشر المراجع المعاصرة لتفصيله إلا أن ... ، مذكور أنه اشتغل بالترجمة لبعض رجال الجيش . عاش إليوس في فرنسا نحو عشرين عاما عمل في ترجمة بوزارة الحربية ، حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية للحملة إلى الفرنسية ، وكذلك شارك العلماء الذين صنفوا كتاب « وصف مصر » في تحقيق الأسماء العربية بخارطاته ، ثم عمل مدرسا للعربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وكان قد ألف قاموسا عربيا فرنسيا ، عني بمراجعته ونشره بعد وفاته المستشرق « كوسان دي برسفال » Caussin de Perceval ، ... في

نشر . وقد طبع هذا القاموس بعد ذلك عدة مرات ، بعضها في مصر بتحقيق عدد من خريجي مدرسة الألسن في عهد إسماعيل . انظر أحمد حسين الصاوي ، فجر الصحافة في مصر ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ؛ وكذلك شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٣٩

(٤٢) يرجع أصله إلى اقليم بيدمونت (Piedmont) الإيطالي ، الذي يقع على سفوح جبال الألب متاخماً حدوده ويتصل مع فرنسا وسويسرا

(٤٣) شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٤

(٤٤) لويس عوض ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ – ٢٠٩

(٤٥) سورجه ١٥ صفر ١١٥ ، يوافق ٨ يوليو ١٨)

(٤٦) محمد فؤاد شكري ، مرجع سابق ، ص ٣٤٤

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٣٤٠

(٤٨) Rigault, op. cit., p. 75

(٤٩) محمد فؤاد شكري ، مرجع سابق ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥

(٥٠) الجبرتي ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١١٨ .

(٥١) Rigault, op. cit., p. 289

(٥٢) الجبرتي ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١٧٩

(٥٣) الجبرتي ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١٦٤

(٥٤) صبري ، مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٧ – ١٣٨

ملاحق

ملحق رقم (١)

نص قصيدة يعقوب فى رثاء الجنرال ديسيه(١)

انا لله وانا اليه راجعون

الحمد لله محرك آلات الألس الأواس ، بأنعام العدة المواس (٢) ، وكاشف المطاء الدلامس (٣) ، عن الآثار المدوزنى عمده حمدا وشكرا لائقا بانه مبدع وخالق ، بارىء الجبروت والخلائق ، مكوّر الأرض والسموات ، مصور الأحياء والأموات ، مميز النفائس من الخسائس . فلا إله غيره ، ولا خير إلا خيره وهو الثالث والسابس آمين .

وبعد ، فهذا دعاء جليل مديد ، به سحب مدب عزيز ، حرى دامته صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد فيقول ..

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
سكرنا بها ليوم البعث والحشر
حبيبٌ وقد دع صبه أبدا
بطل وقد عرف فى سائر العصر

فتلألأت شجاعته وعمله ثم فطنته
وشرح احتماره الدنيا بالنظم والنثر(٤)
وقد دار بها على المماليك إجلالا
ظافر بأرقابهم(٥) نصرا بالعز والقهر
وأخضع شامخ جماعة البربر
مروّض أخلاق أهل إقليم المصر
بل وأهل تيابس(٦) المثمرة ومن
كان قاطنا بالبر ثم والقفر
فاعجب بمن كان محبوبا ثم مرهوبا
حتى ومن كادهم بالحرب والقهر
دامته فاتح بلادنا بناحية قبلى
بضرب ويمشى ولا يدنو إلى الغدر
مجتهد مجاهد وخصم محارب ولكنه
طبيب مداوى الجراح بالزيت والخمر
فآها على ناصرى دامته ووا أسفى
على اصطحابى به لو قدر القدر
فكنت أرعب وجودى عيدانى مارعجوا(٧)
كما رافقته قبلا بصعيد المصرى
فكنت أرجوا وجودى لمعونة عزّى
كما صاحبته قبلا بالعز والنصر
فموتى عنه فداءٌ كان يغنيه
عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهر
أموت عن من حياته دوامها نفع
ودوامها لخير عام والفخر والظفر
ولكنه وإن مات فهو حىّ وما
زال ذكره من دهر إلى دهر

ولم يزل بفكرى خلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى

وظلّ نجمه الجميلة تختفى أنوارا
متدثرا بالتساع[8] فضاء الجو كالقمر

فيصطحب مع الأقدمين مشتركا
متزينا ببهاء أشعة الحب ليبشر

ويشاهد عياننا برج حظ بونابارته
وما خصه الله من العظمات والقدر

وبانتحاد مربع[9] وبهلد القمر مستعرب
يرجف البربر أعداء الله والبشر

فيحصل الخير ويحج أهل مشرقنا
ويعود النظام وترا[10] النعم قد عمر

فيا من قطن ببلدة الأحباء والقبطة
وبقيت هناك تختفى[11] داخل الخدر

جُد على بحفظ العين مرأها
وانظر إلى بأسى برقة البصر

فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته
فعدت حياتنا لا تخلو من الكدر

لاحظ للمصريين وكيف كانوا قديما
وصيرنا عدوا الآن للرق واليسر[12]

فكم كنت تحب أنت من مفاخرهم
وتيبايس المدينة يعلق ذكرها بخير

فسلك برجوا الشفاعة بالمقصد الأول
فلا تدع مصرنا تسامى القهر

ومن بعد حكم الفرنسيس أعواما
فلا تبقيها لحاكم يسوس بالقسر

ويدا خليت بصلح عام متعلقه
من يد بيد حاكم متعجرف ومصر

فمنك نطلب العون بإدامته بأجمعها
وأعلك بيوريس جننا بأشائع الذكر

هـ اعنى بيولس بناحيه ببق
لنجوا بحياتنا من الموت والخسر

فحمد سيك من كل نائبة
فإنهم بأعدائهم فى أعظم الخطر

والآن عصبيم تفاقم ضد أمتنا
ولحبنا الفرنسيس فصدهم سكن القبر

وعيننا للفرنسيس فلا بد عنها
لأنهم أعفونا من الأضرار والشرّ

ثم انتهى مقالى إليك بطرفى
تجزى لديه أعماله بالخير والأجر

هوامش

---

(١) انظر سكل (٣) وقد جاء فى الترجمة الفرنسية المصاحبة للنص العربى أن القصيدة موجهة إلى ... الفرنسية

(٢) جمع « قنس » أى ... مستتر ، وقد يكون معنى العبارة « النعات غير المعروفة »

(٣) ... (٤) ...

(٥) صيغة خاطئة لجمع « رتبة » ، والصحيح « ... » أو « رتب »

(٦) ... (الأقصر)

(٧) يقصد معركة ... التى ... عام ١٨

(٨) يقصد ، ... والاتساع

(٩) عبارة غير مفهومة والسطر كله غير واضح المعنى

(١٠) ... (١١) ... (١٢) يقصد الأسر

ملحق رقم (٢)

النص الكامل لمنشور بونابرت الأول إلى المصريين[1]

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله
لا ولد له ولا شريك في ملكه

من طرف الجمهور الفرانساوي[2] المبني على أساس الحرية والتسوية[3] السر عسكر[4] الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرانساوية يعرّف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق الذين يتسلطنوا في البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار في حق الملة الفرانساوية ويظلموا تجارها بأنواع البلص[5] والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم .

وحسرتاه من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الأبازا والكرجستان[6] يفسدوا في الإقليم الأحسن الذي يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم على انقضا دولتهم .

يا أيها المصريين قد يقولوا لكم إنني ما نزلت في هذا الطرف

إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمد والقرآن العظيم[7] .

وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساويين عند الله وإن الشيء الذي يفرّقهم من بعضهم بعضا هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التي تميّزهم عن الآخرين وتستوجب أنهم يتملكوا وحدهم كلما يحلوا به حيات الدنيا[8] .

حيث يوجد أرض مخصبة فهي مختصّة للمماليك والجواري الأحسن والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصاً .

إن كانت الأرض المصرية التزام للمماليك فليورّونا الحجّة[9] التي كتبها لهم الله فلكن رب العالمين هو رؤوف وعادل على البشر بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحدا من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الأمور[10] وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

سابقا في الأراضي المصرية كانت المدن المعظمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك .

أيها القضاة والمشايخ والأيمة (الائمة) ويا أيها الشوربجية[11] وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمين خالصين[12] وإثباتا لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان يحث دائما النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطه وطردوا منها الكواللرية[13] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرانساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين الأخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعدا أعدايه[14] أدام الله ملكه

وبالمقلوب[15] المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما طاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم .

طوبى ثم الطوبى لأهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدوا في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعوا إلينا بكل قلب .

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم في الحرب علينا فلا يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر .

• المادة الأولى •

جميع القرى الواقعة في دايرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرانساوي فواجب عليها أنها ترسل للسر عسكر بعض وكلا من عندها لكيما يعرفوا المشار اليه أنهم طاعوا وأنهم نصبوا السنجاق الفرانساوي[16] الذي هو أبيض وكحلي وأحمر .

• المادة الثانية •

كل قرية التي تقوم على العسكر الفرانساوي تحرق بالنار .

• المادة الثالثة •

كل قرية التي تطيع العسكر الفرانساوي الواجب عليها نصب السنجاق الفرانساوي وأيضا نصب سنجاق السلطان العثمانلي محبنا دام بقاه .

• المادة الرابعة •

المشايخ في كل بلد ليختموا حالا جميع الارزاق[17] والبيوت والأملاك تاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكيلا يضيع أدنا شي[18] منها .

• المادة الخامسة •

الواجب على المشايخ والقضات والأيمة أنهم يلازموا وظايفهم وعلى كل واحد من أهالي البلد أنه يبقى في مسكنه مطمان وكذلك تكون الصلاة قايمة في الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولت المماليك قايلين بصوت عالي أدام الله إجلال السلطان العثمانلي أدام الله إجلال العسكر الفرانساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية .

تحريرا بمعسكر اسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرانساوي يعني في أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية[19].

هوامش

(١) انظر شكل (٥) .
(٢) يقصد الجمهورية الفرنسية (٣) أي : من مبدأي الحرية والمساواة .
(٤) قد تكتب أيضا « سارى عسكر » أو « صارى عسكر » ، ومعناها القائد العام
(٥) بمعنى يقال يقصه ويقصه من المال ، أي لم يترك له شيئا
(٦) الأمراء (أو الأبناء) من شعوب القوقاز ، والكرجستان هي جورجيا . وفي الأصل الفرنسي «achetés dans la Géorgie et le Caucase»
(٧) في الأصل الفرنسي « وإنني أحترم الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك » : Je respecte, plus que les mameluks, Dieu, son Prophète et Al Coran.
(٨) أي : كل ما تحلو به الحياة الدنيا
(٩) أي فليتطهروا فليحمدوا
(١٠) العبارة في الأصل الفرنسي أكثر تحديدا فهي تقول «Gouverneront» أي « سيتولون الحكم » .
(١١) نعني هنا كبار الأعيان وكانت هذه الكلمة التركية تعني كذلك في الاصطلاح المخصص

عن الضباط حامل رتبة « جوربجي » ، وهي تعادل رتبة « النقيب » حالياً

(١٢) في الأصل الفرنسي « أصدقاء للمسلمين الصادقين » amis des vrais musulmans

(١٣) المقصود فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ، وهم طائفة دينية تكونت في مدينة القدس في أعقاب الحرب الصليبية الأولى (أوائل القرن الثاني عشر) وبعد عدة أحداث استقروا في جزيرة مالطة وقد اتخذت حكومة الثورة الفرنسية عدة إجراءات ضد أتباع هذه الطائفة وأملاكهم ثم قررت حكومة الإدارة (الديركتوار) احتلال جزيرة مالطة نفسها بواسطة الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت ، وهي في الطريق إلى مصر - انظر ص ..

(١٤) أي [illegible] وأعداء أعدائه

(١٥) أي ، وعلى العكس من ذلك

(١٦) أي [illegible] العلم الفرنسي

(١٧) جمع « برقة » ومعناها أرض أو غيرها مما يُعلى ، يرفرف ريحها على أوجه معين

(١٨) أي [illegible] أدنى شيء

(١٩) يوافق هذا التاريخ أول يوليو عام ١٧٩٨ م ، و ١٧ محرم عام ١٢١٣ هـ

ملحق رقم (٣)

نص رسالة مراد بك الى الجنرال منو[1]

جسور[2]

جوب من حضرة أمير اللواء مراد بك أمير الحاج سابقاً خطاباً الى حضرة سرى عسكر عبد الله منو أمير الجيوش الفرنساوية مصمونه

إن سألتم عنا فإنا طيبين بخير ولم نسأل إلا عنكم وغير ذلك ان حضر لنا جوابكم وعرفتونا بما حصل الى حضرة عبد العزيز صارى عسكر كليبر وهذا أمر الله تعالى لم أحداً يبده حيلة وأمر الله تعالى لابد عن سبقه والذى سقط على قتله مثل واحد كبير رى ده لم هو شيء.[3] ويبقا خاين وقليل ابروه ولكن من قديم الزمان الخوانة لهم وكل احد جزاه على الله تعالى وذكرتوا لنا فى جوابكم أن الجمهور[4] سلموا لكم كامل الأمر والحكم وحصل لنا غاية الفرح والسرور لأن سابق بلغنا عنكم الأخبار الطيبة وشكراية عن حضرتكم والناس جميعا يمدحوكم بكل خير واما الآخرين حصل لنا فرح بذلك ووداد حسب معرفتكم وانشاء[5] الله تعالى يكون اعتمادنا على الله تعالى وعلى حضرتكم السعيدة وانا على عهده والشروط على ما هو عليه حكم الأول وانشاء[6]

شكل (٨)

خطاب مراد بك إلى الجنرال مينو يعزيه في مصرع كليبر ويؤكد ولاءه لسلطات الحملة

الله تعالى تزيد المحبة والتوفيق وقبل تاريخه أرسلنا لكم جواب بصحبة الأمير ابراهيم كتخدا تابعنا وعرفنا الأمير ابراهيم كتخدا يعرف حضرتكم عن راحتنا وحضرتكم تتحملوا ونقبلوا. عذرنا في سنة تاريخه لأن حاصل لنا تعب من قبل المعايش والأمر الى الله تعالى والى حضرتكم السعيده وترسلو لنا كامل اخباركم لأجل الطمأنينه عليكم والله تعالى يحفظكم

في ١٥ شهر صفر الخير سنة ١٢١٥(٧)

هوامش

(١) انظر شكل (٨)
(٢) إشارة الى أن المرسل بعث بصور من هذه الرسالة الى سائر جنرالات الحملة
(٣) كلمة غير واضحة في الأصل.
(٤) [illegible]
(٥ ، ٦) كذا [illegible].
(٧) يوافق ٨ يونيو ١٨٠٠

بمكان (إن كان) يظهر كلاماً هنا بخلاف الواقع ثم إن هذا أمر يدركه أيضاً خادمكم الخاص حضرة الجنرال يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع مختار كيف يتصرف في مثل هذه الدعوه والله تعالى يحفظكم .

من عبد توابعكم المباشرين

منطى وأنطون[3]

هوامش

(١) انظر شكل (٩) والعريضة مرفوعة إلى الجنرال منو — كما جاء في الترجمة الفرنسية ، ولكنها غير مؤرخة

(٢) السجس : المكدر والتعكير ، والمقصود الأفعال الرديئة

(٣) كان منطى من أكبر زعماء الأقباط أيام الحملة الفرنسية وقد تولى في عهد بونابرت رئاسة « محكمة القضايا » بالقاهرة ، وهي تجمع بين اختصاصات المحكمة المدنية والتجارية وإدارة الشهر العقاري والمكونة من اثني عشر عضواً . وكذلك كان أنطون من كبار الأقباط وأكابرهم غنى وكان يعرف بلقب « أبو طاقية »

ملحق رقم (٤)

نص عريضة زعماء الأقباط إلى الجنرال منو[1]

حضرة صاري عسكر العام

ان جنابكم من قبل مافيكم من العدل والحلم والعطف أرسلتم تسألونا بأن نوضح لكم ما نحن به من القهر فنحن قبل الآن لم نقصد كشف جراحنا التي كانت في كل يوم تصبح شيئاً فشيئاً أولا تسليماً للتقادير وعشماً بكون كل واحد منا يرجع لذاته ويحسب نفسه تائباً خوفاً من أن يقال عنا إننا محب السجس[2] ومواخد (مؤاخذ) بذلك من الحكام ثالثاً بلا (لئلا) يتصبح كأننا أخصام لأخواتنا وقاصدين الشكوى عليهم ولكن من حيث جنابكم أبو الجميع وطبيب الرعايا وقد زاد علينا الخلل حتى ظهرنا من جملة العصاه على أوامركم وقد قاصصتمونا لذلك فاقتضى الحال أن نستعيث بكرمكم تعينوا بأمركم أناساً من أهل العطف خاليين الغرض نحو مرؤوسيهم لكيما يقعدوا في ما بيننا ويتبصروا في حال حساباتنا وفي النهاية بعد أن يردوا الجواب لجنابكم لكم التبصر في ما تأمرون به ومع ذلك نرجوكم بأن لا تظنوا بكوننا قاصدين بعرضحالنا الشكوى على أحد أم قصاصه بل قصاصنا نحن بوجه خاص

شكل (٩) عريضة زعماء الأقباط

أ ـ من قسم المخطوطات (الأرشيف) بوزارة الخارجية البريطانية

ملحق رقم (٥)

رسالة من القبطان جوزيف إدموندس قائد الفرقاطة بالاس إلى فخامة الإيرل سانت فنسنت وزير البحرية البريطانية على ظهر الفرقاطة بالاس

جزيرة منورقا في ٤ من أكتوبر ١٨٠١

سيدي اللورد

أستميح لفخامتكم أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتابي هذا لاعتقاد مني بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادي أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم « الوفد المصري » موجودون الآن في باريس.

فقد كان من بين ركاب السفينة بالاس التي توليت قيادتها من مصر رجل مصري ذو سمعة طيبة، وهو من زعماء طائفته وله بينها نفوذ كبير، وقد نصبه الفرنسيون قائداً على فيلق برتبة جنرال يتكون من بني قومه.

وبسبب هذا سعى الحظ العاثر لبعض الرعايا فأخذ يحدثني في شئون وطنه. وقد أعرب لي عن اعتقاده بأن أي نوع من حكم بلاده أفضل من حكم الأتراك (العثمانيين) له، وأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع وطني حتى يمكنه أن يخفف عن مواطنيه ما عانوه، ولكن الفرنسيين خدعوهم

فأصبح المصريون الآن يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك ، وأنه ما يزال يأمل في خدمة بلاده عن طريق الحكومات الأوربية ، ويرى أن رغبة إنجلترا في حمايتها أقوى من رغبة فرنسا في ذلك . وقال إن الفرنسيين جميعهم يعتقدون أن دولتهم أقوى دول أوربا ، وأنه لم يكن يعرف إلا قليلا عن القوة البحرية الهائلة لبريطانيا ، ولكنه مع ذلك كان على يقين من أنه يجب مصادقة بريطانيا وأن رغبته في أن تتمتع بلاده بحكومة مستقلة لن يقدر لها أن تتحقق . وقد أبلغني صديقه لاسكاريس الذي كان يترجم أقواله لي أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة القوى الأوربية في أمر استقلالها . وفي أثناء الرحلة مات الجنرال وقام ترجمانه بتحرير المذكرة المرفقة بكتابي هذا وهي مكونة من أجزاء تتضمن خلاصة لما دار بيننا من أحاديث ، إذ كان الجنرال قبل وفاته قد أعرب عن رغبته في أن أبلغ محتوى هذه الأحاديث إلى القائد العام كي يبعث بدوره إلى الحكومة البريطانية . وقد أكد لي السيد لاسكاريس أن الوفد ما زال قائما وأن أعضاءه مسافرون معا على ظهر السفينة ولم أستطع أن أتبين هل لاسكاريس نفسه عضو في هذا الوفد أو أنه لم يكن سوى سكرتير مترجم له . غير أني أعتقد أنه رجل مغرق في الخيال ، وأصل أن أصله يرجع إلى إقليم بيدمونت وأنه من فرسان جزيرة مالطة الذين تركوا الجزيرة مع جيش بونابرت . وقد تعهدت للمعلم يعقوب بألا أكشف أو تستعمل الحكومة البريطانية مضمون أحاديثه في أي وقت من الأوقات لا يمكن أن يعود عليهم بالضرر . ولما كان هذا الوفد ، الذي لا يمكنني أن أحدد مدى صلاحياته ، قد اتجه في العالب إلى باريس للإقامة بها ، فقد رأيت من الضروري إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، إذ قد يمضي بعض الوقت قبل أن تتاح لي فرصة إبلاغها أولا إلى القائد العام اللورد كيث . وأرجو أن تعتبروا ... هذا

ولي عظيم الشرف ياسيدي اللورد أن ..

ملحق رقم (٦)

مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

— ١ —

إن الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجه إلى فخامة اللورد[1] وهو يبدو للوهلة الأولى مجرد التماس بسيط نرجوه أن يهتم بنا نحن المصريين التعساء . ولكن من الضروري في الحقيقة أن ينظر إليه على أنه ملخص للأحاديث السياسية التي دارت بيننا على ظهر السفينة . ولما كان من عدم التبصر في الوقت الحاضر عرض خطتنا بشكل أكثر تفصيلا ، فإن هذه المذكرات الموجزة المكتوبة على عجل يمكن أن تكون كافية لتذكيرك بأهم نقاط أحاديثنا . وعندما يحين الوقت الملائم لرفعك إياها مباشرة إلى حكومتك أو لإبلاغها لفخامة اللورد ، فإن المصريين ، وثوقهم في سجاياك الكريمة ، يتركون لحسن فطنتك أن تثير اهتمام فخامة اللورد بقضيتهم ، حتى يمكن أن يكون لك سندا ، سواء بما سوف يكتبه إلى مجلس الوزراء البريطاني ، أو بما سوف يقوم به عند عودته إلى إنجلترا . وإنما لنؤكد أن فخامة اللورد سوف ينتصر بذلك لقضية ...

مع لبلاده ، وليس هناك ما يمكن أن يكون أسمى غاية لسعي لورد بيل مثله .

— ٢ —

إذا افترضنا أن ما سوف يعرضه « الوفد المصري لدى الحكومات الأوروبية » ، باسم المصريين الذين يمثلهم ، يحوز قبول الأهمية في نظر تلك الحكومات ، فإنكم يا سيادة القبطان توافقوننا على الأقل على أن الدول الأوروبية لن تعمد أحد أو أكثر من أن تبدد بقرار سياسي بسيط ظلمات الجهل والهمجية التي تخيم على هذه البلاد الرائعة الخصيبة . فقد كانت هذه البلاد مهد الاكتشافات والعلوم والفنون . ويحتمل القول أنها كانت المركز الأول للحضارة التي نقلها عنها اليونان ومن بعدهم الرومان . وإذا كانت مصر بماضيها المزدهر العظيم لا تستطيع أن تثير في نفوس أوروبا شعور العرفان بجميلها وما لها من فضل ، فهي تستطيع على الأقل أن تثير فيها شعور العطف عليها . فإذا ما تحقق ذلك وجدوا إلى أمرها مكنها أن ترضي كل الدول الطامعة فيها ، دون أن تهدد واحدة منها في مصالحها .

٣

لن يمضي وقت طويل حتى تؤيد بريطانيا حل القضية المصرية على الأسس التالية . . . وفي هذه الأثناء قد تتقدم الحكومة الفرنسية بعد اقتراح ذلك ، وعندئذ ينبغي ألا تنسى الحكومة الإنجليزية أن ما يقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصري في باريس ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشيء من الريبة . وإذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسي ، فإنها سوف تفعل ذلك على سبيل المجاملة ، لأن مصلحتها في نجاح المشروع أقل من مصلحة بريطانيا . والذي لا شك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال راغبة في امتلاك مصر مرة أخرى .

— ٤ —

[illegible] الإمبراطورية العثمانية على الانهيار . ولذا فيهمّ الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يضمنوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه فيحققوا مصالحهم السياسية . وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر — كما استحال ذلك من قبل على فرنسا — فيكفي أن تصبح مصر مستقلة لتعود بريطانيا صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها . ولا شك في أن استقلال مصر سوف يحقق لها رخاءها ، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بمحاصيلها الوفيرة التي تمنحها تربتها الخصيبة وبتجارتها التي تنفرد بها مع قلب إفريقية

وهذه التجارة سوف تعود بالفائدة على بريطانيا التي يهمها بحكم مركزها في الهند أن تتاجر مع مصر وما حولها .

٥

لقد كان مردريك يقول — وربما كان على حق — إن كبار العرب (هكذا كان يسمي الدول الأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة تامة ، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها ، مما سيجعل منها موضوعا دائما للخلاف فيما بينهم . وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة بها إلى الاستيلاء على مصر لأن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ويضمن لها بالتالي أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها . ولكن ماذا سيكون من أمر هذا النفوذ إذا ما عادت فرنسا من جديد حليفة طبيعية للباب العالي ، وإذا ما عمل الباب العالي من ناحيته على إرضاء فرنسا أكثر من بريطانيا ؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة العثمانية في إجراءاتها فأغلقت موانيها في وجه الإنجليز ؟ ثم أليس من المحتمل كذلك أن يصعد الفرنسيون على حساباتهم [illegible] [illegible] [illegible] مع الإنجليز ، يمكن أن تقضي على تجارتهم في بلاد

الشام وفى البحر الأحمر ؟

٦

إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء فى الحكم فى أثناء احتلالهم لمصر . ولست فى حاجة إلى إعادة الكلام فى هذا الموضوع ، إذ أعتقد أنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حديث حوله . وعلى هذا فإن كل شىء ، بما فى ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإنجليز كلما ازدادت معرفتهم لهم ، يثبت أن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا . ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه . وذلك على ضوء ما هو متوقع من تطورات فى مستقبل الأيام .

– ٧ –

إذا فرضنا أن حكومات الدول الأوروبية سمحت باستقلال مصر ، فكيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

أولا : لا يسمح المجال فى هذه المذكرات المحررة على عجل بالدخول فى تفصيلات مشروع الوفد المصرى لحكم البلاد . ويكفى الآن أن نلاحظ أن قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعى أمة اصطرعت فيها مختلف الآراء الفلسفية ، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جذرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء يكادون لا يعرفون سوى عاطفتين تحركان سلوكهم ، هما المصلحة والخوف . فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسبغ على حياة الناس شيئا من الرخاء وأن تعمل على زيادة دخولهم ، وهو أمر ليس بالعسير ، فمن المؤكد أنها ستنال تأييدهم بحماس . وكيف لا يكون الأمر كذلك وأى حكومة فى العالم أفضل من الاستبداد التركى ، فستكون الحكومة الجديدة إذن عادلة

وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت لك قصتها . ولاشك أنها عندئذ سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب .

ثانيا : كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ ومن سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوروبية ؟ إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت طويل يكون قد تم فى خلاله تنظيم جيش وطنى قادر على رد الاعتداء . أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فنعتقد أن الدول الأوروبية لن تسمح بحدوث ذلك . ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جندى يكفون تماما لصد الترك عبر الصحراء ولسحق المماليك داخل مصر ، وتكون هذه القوات فى الوقت نفسه نواة الجيش الوطنى . وما كان العثمانيون يعفون أى شىء من أجل المال فمن الممكن بذله لهم لردهم عن مصر . ولقد كان المماليك يستعملون هذا السلاح كلما رأوا سحب السياسة تتلبد ضدهم فى القسطنطينية .

وينبغى ألا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أن المصريين منقسمون إلى عدة طوائف ، وأن هذا الانقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها ببعض من أجل حفظ التوازن بينها . وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف جميعا دون انحياز لواحدة منها على الأخرى . وهذه الصلات قائمة فى الخفاء وستظل خافية تماما عن الحكومة التركية فى مصر . وهذه حيطة أمر لابد منه تجاه حكم مستبد متربص بالناس ، ومن يبدى فى عن التعلق بالأخوة دعاة الاستقلال والفتك بهم عن آخرهم إذا استطاع أن يكتشفهم . ولقد استطاع الذين هجروا مصر من هؤلاء الأخوة مع الجيش الفرنسى أن يتحدوا طغيان الترك ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأخوة الذين بقوا فى مصر ، فهؤلاء يعيشون تحت السيف والعصا ، ولا يمكنون إلا إخفاء حقيقتهم والظهور بمظهر العبيد السلطان المخلصين

— ٨ —

إن المصريين كافة ، والوفد المصرى لدى الدول الأوربية بوجه خاص ، سيبذلون كل ما فى وسعهم من جهد ليحرروا أنفسهم بطريقة ما من النير الذى يثقل كاهل بلادهم التعسة . ولكن إذا خاب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون ، وشاء القدر أن يعود الترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وتعريضها بذلك لتجدد العدوان عليها ، فأقل ما يلتمسه المهاجرون المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل لهم من الضمانات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم .

— ٩ —

بالرغم من أن الوفد المصرى لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فى ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يبدو من غرابة هذا القول فيمكننا البرهنة على صحته) ، فقد تعرض ظروف لابد فيها من المحافظة على أسرار المفوضات . ولذلك فرسا نرفق بهذه شفرة يمكن استعمالها فى مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك .

— ١٠ —

يرى الوفد المصرى حرصا منه على نجاح المفوضات المزمعة ضرورة كتمان أمر ما اتخذناكم فيه من مقدمات لها ، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه لسماحة اللورد ، من موقف وعن أى طرف يستطيع عرقلتها . إن خطة الوفد أن يعمل فى أوربا على أن تكون فرنسا هى التى تبدأ بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ، وتكون بريطانيا عندئذ قد اقتنعت بما فى مشروع الاستقلال المقترح من مزايا فتؤيده . وبهذه الطريقة فإن الوفد المصرى لن يتعرض لأن ترى الحكومة الإنجليزية رفض المشروع بمجرد علمها به بسبب العداء التقليدى بين الأمتين الإنجليزية

والفرنسية ، أو شكا منها فى وجود دسيسة ما من دسائس فرنسا

— ١١ —

لكى نسهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك ياسيدى القبطان أن ترسل ما تريد إلى السنيور الكونت انطون كاسيس (فسيس) المقيم فى تريستا ، وهو يقوم بتحويلها إلى حيث يقيم الوفد ، على أن يوضح ذلك بوضع اسمى تحت اسمه على كل رسالة . أما الرسائل التى قد توجه إلينا من إنجلترا ، فإن وصولها إلى باريس سوف يشيع أمره فتتيسر عندئذ معرفة أين نقيم ، وبهذا يمكن أن أتسلم رسائل حكومتكم بسهولة . ولكن تلزم الحيطة التامة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أية شكوك إلى الحكومة الفرنسية .

صدر السفينة بلاس فى ٢١ سبتمبر ١٨٠١

هوامش

(١) يقصد الأميرال لورد كيث . [illegible]

ب ــ من قسم المخطوطات (الأرشيف) بوزارة الخارجية الفرنسية

ملحق رقم (٧)

من تمر الهدى نيابة عن الوفد المصرى إلى القنصل الأول بونابرت

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير

المحجر الصحى بمارسيليا فى أول فندمير من السنة العاشرة للجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦[1]

فى قديم الزمان ، إبان تلك العصور الموغلة فى القدم ، عندما كانت فرنسا فى حالة الفطرة تكسوها الثلوج والغابات ، كانت مصر متحضرة مزدهرة ينهل مشرعو الإغريق من معين علمها ومعرفتها . ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يفد مصريو العصر الحاضر أحفاد رواد الحضارة فى الماضى إلى فرنسا وهى تنعم بحكمتك الرشيدة ، ليتعرفوا على مصدر أمه بجبوتها وليقفوا على ما استحدثته من وسائل لم تسبقها إليها أمة أخرى ، مكنتها . وهى الجمهورية الناشئة ــ من المحافظة على مكاسبها الحربية بما سنته من نظم سياسية جديدة ... وكما أن سولون (Sol on)[2] عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتبسه من النظم المصرية ، فإن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيشرع لمصر ما ترصده هنا من نظم عندما يعود إليها من فرنسا .

إن هذا سوف يحدث بفخامة القنصل الأول إذا تفضلت ــ من أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية ــ فمددت يد المساعدة للمصريين التعساء الذين وضعت عنهم من قبل أغلالهم التى عادوا يرزحون بها من جديد ، وتكرمت فأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس . إننا نأمل أن يكون استقبالنا فى العاصمة الفرنسية بمثابة احتفال شرقى يجدد لك ذكرى الفتح العظيم الذى اختص الله به عبقريتك ثم ضاع منك . ولابد أنك ــ ياسيدى القنصل الأول ــ شديد الإحساس بألم ما فقدت ، ولكنك إذا عملت فى معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة سوف تعوض خسارتك فيها مائة مرة . إن هذه هى أمانينا التى أخذنا على أنفسنا عهدا بالسعى إلى تحقيقها .

عن الوفد المصرى

وكيله

تمر الهدى

حاشية : أغا الانكشارية[3] وعضو الوفد الذى سبق أن عرفه فخامة القنصل الأول فى القاهرة يرجونى أن أذكرك بأنه لن ينسى ما غمرته به من عطف حينذاك .

هوامش

(١) صحة التاريخ هجرياً ــ حسب الجدول التوفيقى ــ هو ١٠ جمادى الأولى
(٢) هو المشرع الأثينى المعروف (٦٤٠ ــ ٥٥٨ ق م) الذى وضع لبلاده عدة قوانين حررتها من قيود كثيرة
(٣) هو عبد العال نعمة الانكشارية الذى سبق ذكر خروجه من مصر مع الجيش الفرنسى (انظر ص ٥٠)

ملحق رقم (٨)

من نمر أفندى إلى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(تاريخ الملحق السابق نفسه)

سيهبط إلى موانيء الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقيين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التي تم جلاؤها عن مصر . والوفد المصرى ، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذى قضى نحبه فى أثناء السفر،يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية،ويرى من الضرورى أن يلجأ إليك ياسعادة الوزير لتتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتشملهم بكرمك وعنايتك .

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ، ولكنه كان يسعى فى الحقيقة لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط أفريقيا الجذابة الغامضة . ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكى يتعلم فى فرنسا عدد من شباب القبط المصريين ، لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة

الإثيوبية . وإذا كان الملك قد أخفق فى مسعاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم فى ظل حكم القنصل الأول استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكيه المطلقة الاستبدادية .

وإن الوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية ليجسد وحده كل ما يختلج فى نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة ، وما يحتشد فى قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يتمتعون به من نفوذ وثروة . وهو يعبر عما أجمعوا عليه مما يتمثل فى رغبتين : الأولى هى القضاء على القوة الغشوم التى عادت تستبد بهم من جديد ، والثانية هى وضع ثقتهم فى فرنسا ليقينهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضى ألا تخيب أملهم . وبناء على ذلك فنحن نتقدم إلى سعادة الوزير باقتراح : لقد تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة جسيمة ، فلم لاتتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرته ؟ إنك إذا تفضلت فدعوت الوفد إلى لقائك فى باريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع بريطانيا ، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسى فى الشرق وتحميه مما قد يفقدها إياه زمنا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن ، ونتيجة لمؤامرات الدول التى تخشى بحق زيادة نفوذ فرنسا . بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد أن فرنسا ـ إذا أرادت ـ يمكنها عن طريق الأمة المصرية التى ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط أفريقيا . وهكذا يتحول تركك مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد القنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية فى الجنوب .

ولا يرى الوفد المصرى فى الوقت الحالى داعيا للإطالة : فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يوضح مقاصده بما لايستطيع فى عشرين مذكرة مكتوبة . ونحن العرب نقدر فى الحديث على التعبير عما نريد ، وإن كنا فى الكتابة قد لانستطيع أن نبلغ الغاية فى يسر . وبالإضافة إلى

هنا فنحن مدركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز فى الرسائل . إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا ، وأن تسمح لنا اذا تكرمت باستقبالنا فى باريس أن نقابلك بزينا الشرق . فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسير عليهم تغيير زيهم ، ثم إن هذه الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة القنصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حب الاستطلاع لدى من لم يحضره للشرق .

إن الوفد المصرى يعلم تماما أن وقت القنصل الأول ، الذى يدبر بنفسه شئون الحكم حتى فى أدق جزئياتها وتنعم الدولة برعايته ، أثمن من أن ينفقه فى التندر بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة . ولكننا نرجوه أن يقدر أن وفدنا ينفرد بطبيعة خاصة ، وأنه يصل إلى فرنسا فى ظروف معينة ، وأن كتابنا له المرفق بهذا له أهميته ، فيتفضل بتسلمه وينعم النظر فيه بحكمته العميقة .

مصادر البحث

أ ـ المراجع العربية

١ ـ جاك تاجر ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

٢ ـ رءوف حبيب ، صور من تاريخ القبط ، رسالة مار مينا الرابعة ، مطبوعات جمعية مار مينا العجايبي ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٣ ـ شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

٤ ـ عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ .

٥ ـ لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، جزءان ، كتاب الهلال ، العددان ٢١٥ و ٢١٧ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٦ ـ محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وظهور محمد على ،

القاهرة ، بدون تاريخ .

٧ ـ يعقوب نخلة رفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

ب ـ المراجع غير العربية

1 - Douan George, **L'Egypte Independente**, Le Caire, 1924.

2 - Homsy, Gaston, **Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Egypte**, Marseille, 1921.

3 - La Jonquière, C. De, **L'Expédition d' Egypte (1798-1801)**, Paris, 1899-1907.

4 - Rigault, **Le génèrel Abdallah Menou et la Dernière Phase de L'Expédition d'Egypte** (1799-1801), Paris, 1911.

5 - Rousseau, M.F., **Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaporte**, Paris, 1900.

جـ ـ الوثـائق

١ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية : تركيـا

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الفرنسـية : تركيا ، مراسلات

٣ ـ وثائق وزارة الدفاع الفرنسية : جيش الشرق

فهرست